



الرؤى والأقنعة

ترجمة وتقديم

إدوار الخراط

مختارات
من القصص الغربي

آلان روب جرييه - جـم جـلي كليزيو - ناتالي ساروت -
فرناندو أرابال - كلود أنطوانی کیشیونی - صموئیل بیکیت
س جويس - دايلان توماس - فريد ريش دورينمات -
ت ايزارايش - هنريش بول - رولو ويلي - ماكس
- ارسكين كالدويل - وليم سارويان - وليم فولكنر -
جوزيه ثيلا



الرؤى والأقنعة

الرؤى والأقنعة

مختارات

من القصص الغربي

ترجمـــة وتقديم : أدوار الخراط

الطبعة الأولى
1995

منشورات المجمع الثقافي
Cultural Foundation Publications

ص. ب ٢٣٨٠ ـ أبوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ هاتف : ٢١٥٣٠٠
P.O. BOX · 2380 - ABU DHABI - U.A.E. - TEL 215300 - CULTURAL FOUNDATION

تقديم

يقال كثيراً إن القصة القصيرة فنٌّ مراوغ ، مرهف ورقيق المدخل إلى النفس . ولا يصدق هذا القول على شيء أكثر مما يصدق على هذه المختارات من القصص الحديث الذي تتراوح اتجاهاته ومنازعه بين الحداثي الضارب في أرض غير مسبورة ، وبين البنية التي تخايل بأنها «تقليدي» وإن كانت تضمر في طواياها مغامرة الغوص في دخائل وأغوار النفس ، بين القصص الذي تجنح لغته إلى شاعرية محلّقة ، والأعمال التي تبدو كأنها رصد محايد للظواهر الخارجية وإن كانت تتضمن إيحاءات العالم الجوّاني للإنسان ، بين شطح الخيال السيريالي ، وما يلوح لأول وهلة أنه تقرير للواقع الصارم الجاف ، بين التناول المسهب التفصيلي ، ضربات القلم الموجزة القاطعة .

وفي تصوري أن هذه المختارات من القصص الغربي تتيح للقارىء أن يلمَّ بمذاهب شتَّى لهذا الفن المراوغ الساحر ، وأن يتذوّق له نكهات متنوعة ومختلفة ، من قصص ما سُمي بمذهب النظرة أو التشيؤ عند آلان روب جرييه إلى قصة هي أدخل في باب الشعر السيريالي عند فرناندو آرابال ، وبين التحليل المتأني الصبور عند هنريش بول ، إلى اللمحات الدّالة الخاطفة عند كاميلا خوزيه تيلا ، من الجسارة والجرأة عند كاتب مثل ماكس وايزمان ، إلى التناول الواثق الهادىء عند كاتب مثل ارسكين كالدويل .

استمتعت بقراءة هذه القصص على مدى سنوات متطاولة ، فأحببت لك يا قارئي أن تعرف مثلي هذه المتعة النادرة التي من شأنها أن تزيد حياتنا ثراءً– وخاصةً في الزمن العربي الموحش– وأن توثّق وشائج القربى الحميمة بين الناس . في ذلك فعل أخلاقي من نوع خاص ، لا يقوم عليه إلا الفن وحده ، على طريقته المرهفة المدخل ، المتخفية بمكر حميد ، فضلاً عن الفعل الجمالي الذي هو خصيصة الفن .

وراء أقنعة الفن الجميل تقع رؤى الخبرة الإنسانية العميقة .

إدوار الخراط

آلان روب جرييه

●

«الشيئية» ، أو «مدرسة النظرة» التي مثلها آلان روب جرييه ألمع تمثيل هي المدرسة التي ترى أنه في البدء هناك الكلمة ، والكلمة هنا لا تريد أن تنقل معنى ما ، بل هي تريد أن تعيد الأشياء إلى حضورها الأساسي ، إلى وجودها ، أن تخلقها ، وتُقيمها ، في كثافتها ، ولا مبالاتها . إنها تريد أن تنشىء ، من جديد ، عالمَ الكيان ، عالم الكائنات في ذاتها ، دون أن تصفها ، دون أن تضفي عليها أيةَ دلالة غير نابعة من ذاتها ، تريد أن تجردها ، أساساً ، من إضافات الشحنات الإنسانية التي نخلعها عليها ، نحن ، من جانبنا ، ونحققها بها ، نحن ، كعناصر لا صلة لها بالكائنات التي توجَد في مجال غير إنساني ، في سياق غير انفعالي ، في فلك ليس له معنى إنساني .

هذا المذهب يرى أن الخطأ الذي وقع فيه الكُتّاب والقصّاصون هو أنهم يعطون للعالم معنى ، وهو خطأ يرجع إلى عادة عقلية ووجدانية تعود منذ الأيام البدائية الأولى للإنسان ، حيث كل شيء إنساني ، وكل شيء يتكلم وله صوت كصوت البشر ، ويعاني من أقدار ومصائر الإنسان ، أما النقيض الآخر فهو في القصة «الشيئية» حيث كل شيء صامت ، كائن في ذاته ، لا علاقة له بالإنسان تقوم مشروعيته مكتفية بذاتها ، دون حاجة لأية إضافة من جانب الإنسان .

وُلد آلان روب ـ جرييه في عام ١٩٢٢ ، في مدينة بـرست ، اشتغل مهندساً زراعياً ، وأقام في بلاد مثل المغرب وغينيا وجزر الأنتيل ، وتفرغ منذ الستينيات لكتابة الإبداع الروائي والسينمائي .

من أهم كتبه في الرواية : «الممحاة» في ١٩٥٣ ، «المتلصص بالنظر» في ١٩٥٥ ، «الغيرة» في ١٩٥٧ ، «في المتاهة» في ١٩٥٩ ، وغيرها ، وفي القصة القصيرة له «اللحظات» ١٩٦٢ ، وفي المقالات «نحو رواية جديدة» في ١٩٦٣ .

ثلاث رؤى

■ الرؤيا الأولى ـ المانيكان

إناء القهوة على المائدة .

وهي مائدة مدوّرة لها أربع سيقان ، مكسوة بقماش مشمع به مربعات حُـمـر ورمادية على أرضية بلون باهت ، أبيض مصفر لعله كان من قبل عاجياً ـ أو أبيض . وفي الوسط قطعة مربعة من الخزف تقوم مقام الطَـبَـق ، وقد تنكرت رسومها تماماً ، أو على الأقل استحال التعرف على معالمها من جراء آنية القهوة ، الموضوعة فوقها .

آنية القهوة من الخزف البني . وهي تتشكل من كرة مجوفة تعلوها عنق أسطوانية مزودة بغطاء على هيئة نبات الفطر . والطرف العلوي من العنق متعرج بانحناءات ناعمة ، منبعج قليلاً عند القاعدة . والعروة ، إذا صحت هذه التسمية ، على شكل الأذن ، أو الحافة الخارجية للأذن ، على الأصح ، ولكنها أذن شائهة ، مدورة أكثر مما ينبغي ، لا شحمة لها ، ومن ثمَّ فإنَّ لها هيئة عروة الآنية . والعنق ، والعروة ، والغطاء الذي على شكل نبات الفطر ، بلون الزبد ، والباقي كله بلون بني رائق موحد ، ولامع .

لا شيء على المائدة ، إلا القماش المشمع ، وطبق الآنية ، وآنية القهوة .

وإلى اليمين ، أمام النافذة ، يقوم المانيكان .

وخلف المائدة ، على الجدار فوق الموقدة ، مرآة كبيرة مستطيلة يرى المرء فيها نصف النافذة (النصف الأيمن) وإلى اليسار (أي الجانب الأيمن من النافذة) صورة الدولاب ذي المرآة . وفي مرآة الدولاب ، يرى المرء من جديد النافذة ، كاملة هذه المرة ، وفي وضعها الصحيح (أي أن الضلفة اليمنى على اليمين ،الضلفة اليسرى على اليسار) .

ومن ثمَّ فإنَّ فوق الموقدة ثلاثة أنصاف للنافذة ، تتابع دون انقطاع تقريباً ، وهي على التتالي (من اليسار إلى اليمين) ، نصف أيسر في الوضع الصحيح ، ونصف أيمن في الوضع الصحيح ، ونصف أيمن في الوضع المعكوس . ولما كان الدولاب ، بالضبط ، في ركن الغرفة ، ويصل حتى حافة النافذة ، فإنَّ النصفين الأيمنين من النافذة لا يفصلهما إلا حافة الدولاب الضيقة التي تبدو كأنها قائم خشبي في وسط النافذة (الحافة اليمنى للضلفة اليسرى تتصل بالحافة اليسرى للضلفة اليمنى) . وتـــرى ، من بين الضلف الثلاث ، فوق الستارة السفلي ، أشجار الحديقة ، لا أوراق عليها .

وعلى هذا النحو تشغل النافذة كل سطح المرآة ، فيما عدا الجزء العلوي حيث يرى شريط من السقف ، وأعلى الدولاب ذي المرآة .

ويـــرى أيضاً في المرآة ، فوق الموقدة ، مانيكان ثان ، وثالث : أحدهما أمام الضلفة الأولى للنافذة ، وهي أضيق الضلف ، إلى آخر اليسار . والآخر أمام الضلفة الثالثة (وهي آخر الضلف إلى اليمين) . وهما لا يواجهان أحدهما الآخر : فالأيمن منهما يظهر منه جنبه الأيمن ، أما الأيسر وهو أصغر قليلاً ، فيظهر منه جنبه الأيسر . ولكن من الصعب أن نتبينه على وجه الدقة لأول وهلة ، إذ أن الصورتين متجهتان في نفس الاتجاه ، ومن ثمَّ يبدو أنه يظهر منهما

ـ كليهما ـ جنب واحد ، لعله الجنب الأيسر .

ويقف المانيكانات الثلاثة على صف واحد . الأوسط منها يقع إلى الجانب الأيمن من المرآة ، وقامته تتوسط قامتي الآخرين ، ويتجه بالضبط في نفس اتجاه آنية القهوة الموضوعة على المائدة .

وعلى الجزء الكروي من آنية القهوة يلمع انعكاس مشوه للنافذة ، شكل مربع الأضلاع ، أضلاعه أقواس قزح . والخط الذي يتشكل من القوائم الخشبية ، بين ضلفتي النافذة ، يتضخم فجأة في اتجاهه إلى أسفل ليتحول إلى بقعة غير دقيقة الحدود . هذا لا شك هو الظل المانيكان .

***

الحجرة منيرة جداً ، إذ أن النافذة عريضة إلى حد غير مألوف ، وإن لم يكن لها إلا ضلفتان .

وللقهوة الساخنة نكهة طيبة تتفوح من آنية القهوة على المائدة .

المانيكان ليس في مكانه ، فهو يوضع عادة في ركن النافذة إلى الجانب المقابل للدولاب ذي المائدة . وقد وضع الدولاب هناك لتيسير عمل بروفات الملابس على المانيكان .

والرسم على طبق الآنية يمثل بومـــة لها عينان مخيفتان قليلاً . ولكن المرء لا يتبين منه شيئاً الآن ، من جراء آنية القهوة .

***

■ الـــرؤيـــة الثانيـــة : البديـــل

تراجع الطالب قليلاً ورفع رأسه نحو أخفض الأغصان . ثمَّ خطا خطوة إلى

الأمام ، ليحاول أن يمسك بفرع كان يبدو في متناول يديه : رفع نفسه على أخمص قدميه ومد يده إلى أعلى ما يستطيع ، لكنه لم يستطع أن يصل إليه . وبعد عدة محاولات غير مثمرة ، بدا أنه تخلى عن الفكرة . أنزل ذراعه وظل شاخصاً ببصره إلى شيء ما بين أوراق الشجرة .

ثم عاد إلى جذع الشجرة . ووقف في نفس الوضع الذي كان فيه أول مرة ، ركبتاه مثنيتان قليلاً ، وصدره منحنٍ إلى اليمين ، ورأسه مائل على كتفه . كان يمسك بحقيبته طوال الوقت في يـــده اليسرى . ولم يكن المرء يرى يده الأخرى التي كان يستند بها ، لاشك ، إلى جذع الشجرة ، ولا وجهه الذي كان ملتصقاً ، تقريباً ، بلحاء الجذع ، كأنما يتفحص فيه شيئاً ما ، عن كثب ، على ارتفاع متـــر ونصف تقريباً من الأرض .

كان الولد قد توقف من جديد في قراءته ، ولكن لابد أنه كانت هناك هذه المرة نقطة ، أو لعلها فقرة جديدة حتى ، وكان من الواضح أن الولد يقوم بجهد لكي يبرز ويؤكد نهاية الفقرة . ونهض الطالب من جديد ليتفحص لحاء الشجرة أعلى قليلاً .

ارتفعت وشوشات وهمسات في الفصل . وأدار المدرس رأسه ورأى أن معظم التلاميذ قد رفعوا رؤوسهم ، بدلاً من أن يتابعوا القراءة في كتبهم ، وكان القارىء نفسه ينظر إلى المنصة نظرة تساؤل غامض ، أو خوف . قال المدرس بلهجة صارمة :

«مـــاذا تنتظر لكي تكمل القراءة؟» .

هبطت كل الوجوه بصمت واستأنف الولد قراءته ، بنفس الصوت الجاد

الدؤوب ، دون تنويع ، وببطء أكثر قليلاً مما ينبغي ، مما أضفى على كل الكلمات قيمة واحدة ، ووضع بينها مسافات متماثلة .

«وفي المساء ذهب جوزيف دي هاجين ، أحد ضباط فيليب ، إلى قصر كبير الأساقفة ، على زعم أنها زيارة مجاملة . وكما سبق أن قلنا فإنَّ الأخوين . . .» .

كان الطالب ، من الجانب الآخر للشارع ، يتفحص من جديد أوراق الشجر الدانية . ضرب المدرس على المكتب براحة يده ، وقـال :

«وكما سبق أن قلنا ، شولة ، فإنَّ الأخوين . . .» .

وعثـر المدرس على الفقرة في كتابه ، وقرأ ، وهو يغالي في ترقيم الألفاظ :

«من جديد : «وكما سبق أن قلنا ، فإنَّ الأخوين كانا هناك بالفعل ، حتى يتسنى لهما ، إذا اقتضت الحال ، أن يتحصنا وراء هذا البرهان على الغيبة . . .» وركز انتباهك فيما تقرأ» .

وبعد صمت ، استأنف الولد جملته :

«وكما سبق أن قلنا ، فإنَّ الأخوين كانا هناك بالفعل ، حتى يتسنى لهما ، إذا اقتضت الحال ، أن يتحصنا وراء هذا البرهان على الغيبة ـ وهو برهان مشكوك فيه في الحقيقة ولكنه أفضل ما أتيح لهما في هذا الوضع ، دون أن يكون لابن عمهما الذي لم يكن يثق فيهما ، ما يدعوه لأن . . .» .

سكت الصوت الرتيب فجأة ، في وسط الجملة . أما التلاميذ الآخرون الذين كانوا قد رفعوا رؤوسهم نحو صورة رجل مقطوعة من الورق ، معلقة في الحائط ، فقد غاصت رؤوسهم على الفور في كتبهم . وعاد المدرس يدور بنظره

من النافذة حتى وصل إلى القارىء الذي كان يجلس في الجانب المقابل ، في الصف الأول قريباً من الباب ، وقال :

«نعـــم ، نعـــم . . استمـر . ليس هناك نقطة . يبدو عليك أنك لا تفهم شيئاً مما تقرأ !» .

نظر الولد إلى الأستاذ ، وإلى ما وراءه ، إلى اليمين قليلاً ، إلى الصورة المقطوعة من الورق الأبيض .

«هل تفهم ، نعم أم لا؟» .

قال الولد بصوت لا ثقة فيه :

«نعـــم» .

فصحح له المدرس :

«نعـم يا سيدي»

وكرر الولد :

«نعـم يا سيدي»

نظر المدرس إلى النص في كتابه وسأل :

«ماذا فهمت من كلمة «البرهان على الغيبة»؟» .

نظر الولد إلى الرجل المصنوع من الورق المقطوع ، ثمَّ إلى الحائط العاري ، أمامه مباشرة ، ثمَّ إلى الكتاب على درجة ، ومن جديد إلى الحائط خلال دقيقة من الوقت تقريباً ، وقال المدرس :

«نعـــــم . .؟» .

قـــال الولـد : «لا أعرف يا سيدي» .

استعرض المدرس الفصل كله ببطء . ورفع أحد التلاميذ يده ، قريباً من

نافذة المؤخرة . مـــد إليه المدرس أصبعه ، ونهض الصبي من مقعده :

«يعني حتى يظن الناس أنه هناك يا سيدي» .

ــ بعبارة أدق . من تقصد؟ .

ــ الأخوين يا سيدي .

ــ أين كانا يريدان أن يظنهما الناس موجودين؟ .

ــ في المدينة يا سيدي ، عند رئيس الأساقفة .

ــ وأين كانا موجودين في الحقيقة؟ .

ــ فكر الولد لحظة قبل أن يجيب :

ــ ولكنهما كانا هناك بالفعل يا سيدي ، ولكنهما كانا يريدان أن يذهبا إلى مكان آخر ، ويجعلان الآخرين يظنون أنهما ما زالا هناك .

«وبعد هزيع من الليل ، تسلل الأخوان ، وقد تنكرا بأقنعة سوداء وأحاطت بهما عباءات فضفاضة ، وهبطا على سلم من حبال ، إلى شارع مهجور» .

هـــزَّ المدرس رأسه عدة مرات ، إلى جنب ، كما لو كان راضياً بقدر ، وبعد بضع ثوان قال : «طيب . . لابأس . . والآن عليك أن تلخص هذا الفصل كله من الكتاب لزملائك الذين لم يفهموا» .

نظر الولد نحو النافذة ، ثمَّ وضع عينيه على الكتاب ، لكي يرفعهما إلى المنصة :

«أين أبدأ يا سيدي؟» .

«ابدأ من أول الفصل» .

«تصفح الولد أوراق كتابه ، دون أن يجلس ، وبعد صمت قصير أخذ يروي قصة مكيدة فيليب دي كارور . وعلى كثرة ما تردد ، وتعثر ، واستأنف من

جديد ، فقد روى القصة على نحو قريب من الفهم . ولكنه مع ذلك أولى الوقائع الثانوية قدراً أكبر مما ينبغي بكثير من الاهتمام ، ولم يكد يذكر أحداثاً من الأهمية بمكان ، أو لم يتناولها بالذكر على الاطلاق . ولما كان ، فضلاً عن ذلك ، يؤكد الأفعال والأحداث ويفضل أسبابها السياسية ، فقد كان من الصعب حقاً على مستمعيه ـ إذا لم يكونوا على علم بما يروي ـ أن يستخلصوا ، من نسيج روايته المتشابك ، فهماً للحوافز والدوافع التي تقع وراء الرواية ، والعلاقات التي تربط بين الأعمال كما وضعها وبين الشخصيات المختلفة . وانتقلت نظرة المدرس ، على نحو غير محسوس ، على طول النوافذ . كان الطالب قد عاد تحت أدنى أغصان الشجرة وأقربها إلى الأرض ، وكان قد وضع حقيبه تحت الشجرة ، وأخذ يتواثب في مكانه ، وهو يرفع ذراعه . ولما وجد أن كل جهوده راحت بلا طائل ، وقف من جديد بلا حراك ، يتأمل أوراق الشجرة التي لا تنال . كان فيليب دي كابور يعسكر مع جنوده المرتزقة على ضفاف نهر نيكر . وكان التلاميذ ، ولم يعد من المفروض أن يتابعوا النص المطبوع ، قد رفعوا رؤوسهم جميعاً وأخذوا يتأملون صورة الرجل المقطوعة من الورق والمعلقة بالحائط ، دون أن يقولوا شيئاً . لم يكن له يدان أو قدمان ، بل أطراف أربعة مقطوعة على نحو غليظ ، ورأس مستدير ، أضخم بكثير مما ينبغي ، يمر منه الخيط . وعلى ارتفاع سنتيمترين ، في الطرف الآخر من الخيط ، ترى كرة ورق النشاف الممضوغ التي كان الخيط معلقاً بها .

ولكن الراوي ضل سبيله في تفاصيل من الراوية لا دلالة لها على الاطلاق ، واضطر المدرس أن يقاطعه :

«طيب ، عرفنا الآن من الرواية ما فيه الكفاية . اجلس . واستأنفوا القراءة من

أعلى الصفحة : «ولكن فيليب وأنصاره . . . .» .

انحنى الفصل كله ، بحركة واحدة ، على الأدراج ، وابتدأ القارىء الجديد ، بصوت لا تعبير فيه ، كصوت زميله الذي سبقه ، وإن كان يبرز كل شرطة وكل نقطة ، بواعز من ضمير حـــي :

«ولكن فيليب وأنصاره لم يدركوا الأمر على ذلك النحو . فإذا كانت أغلبية المجلس ـ أو حتى جماعة البارونات فقط ـ قد وافقت على النزول عن الامتيازات الممنوحة لهم ، وله ، جزاء على التأييد الذي لا يقدر بثمن والذي قدموه لقضية الارشيدوق عند نشوب الثورة فإنهم عندئذ يسلمون بأنه لم يعد في وسعهم ، ولا في وسعه ، أن يطالبوا في المستقبل بتوجيه اتهام إلى أي شخص مشتبه فيه ، أو بإيقاف حقوق النبالة التي يتمتع بها ، دون أن يصدر بذلك حكم سابق . ولذلك كان يرى ضرورة إيقاف هذه المفاوضات التي كانت تبدو له في غير صالح قضيته ، وإيقافها بأي ثمن ، قبل التاريخ الذي كان من شأنه أن يفضح الأمر كله . وفي المساء ذهب جوزيف دي هاجين ، أحد ضباط فيليب ، إلى قصر كبير الأساقفة ، على زعم أنها زيارة مجاملة . وكما سبق أن قلنا ، فإنَّ الأخوين كانا هناك بالفعل . . . . .» .

ظلت الوجوه منحنية ، بأدب وعقل ، على الأدراج . وأدار المدرس عينيه نحو النافذة . كان الطالب مستنداً إلى الشجرة ، وقد استغرقه تفحصه للحائها . وهبط ، ببطء بالغ ، كما لو كان يتتبع خطاً على جذع الشجرة ـ من الناحية التي لم تكن مرئية من اتجاه نوافذ المدرسة . وعلى ارتفاع متر ونصف من الأرض ، تقريباً ، كف حركته ، وأومأ برأسه إلى جنب ، في نفس الوضع الذي كان قد اتخذه من قبل . وارتفعت الوجوه ، واحداً بعد واحد ، في الفصل .

كان الأولاد ينظرون إلى المدرس ، ثمَّ إلى النوافذ . ولكن ألواح الزجاج السفلية في النوافذ لم تكن مصقولة ، ولم يكن في وسعهم أن يروا ، من فوق ، إلا ذؤابات الأشجار والسماء . ولم يكن على النوافذ فراش أو ذباب وسرعان ما راحت كل الأنظار تتأمل من جديد صورة الرجل المقطوع من ورق أبيض .

***

■ الرؤيا الثالثة : الاتجاه الخاطىء

تجمعت مياه المطر في جوف وهدة من الأرض لا عمق فيها ، وتكونت منها في وسط الأشجار بركة شاسعة ، دائرية إلى حد ما ، يبلغ قطرها نحو عشرة أمتار . والتربة حولها من كل ناحية سوداء ، لا أثر فيها لأي نبت بين جذوع الأشجار العالية المستقيمة . وليس في هذه البقعة من الغابة ثمَّ شجيرات أو دغل من الشجر . وإنما الأرض مغطاة بسندس موحد اللون والقوام ، من الأغصان المورقة والأوراق المعرقة ، لا تكاد تبرز منها ، في بعض الأماكن ، لوحات من الطحلب مضى به التحلل شوطاً ، وفي أعلى ذؤابات الشجر تتحدد الأغصان العارية بوضوح على الماء .

والمـاء شفاف ، وإن كان بلونٍ يضرب إلى البني . والهشيم الدقيق الصغير الذي سقط من الأشجار ـ أفنان صغيرة ، وبذور مفرغة ، ومزق من اللحاء ـ قد تراكم في قاع الوحدة ، ومنقوعاً فيه منذ بداية الشتاء . ولكن شيئاً من كل هذا الحطام لا يطفو ، ولا يصعد ليشق صفحة الماء التي تبدو صافية ، متسقة الصفاء ، ومصقولة . وليس ثَـمّ نسمة من الهواء تشوب جمود الماء الساكن بلا أدنى حراك .

وقد صفا الجو . وقارب النهار نهايته . وجنحت الشمس للمغيب ، إلى اليسار ، وراء جذوع الأشجار . ورسمت أشعتها المائلة ، على سطح البركة كله ، خطوطاً ضيقة مضيئة واهنة ، تتعاقب مع خطوط داكنة عريضة .

ويقف بالتوازي مع هذه الخطوط ، صف من الأشجار المفتولة ، على الشاطىء المقابل أسطوانات كاملة الاستدارة ، عمودية ، ليس بها أغصان دانية ، تستطيل ممتدة إلى أسفل ، في صورة لامعة شديدة اللمعان ، أكثر وضوحاً وتحديدا من الأصل الذي يبدو مضطرب المعالم بل مهتز الحدود . وفي المياه السوداء تتألق ذؤابات الأشجار المتسقة التكوين ، كما لو كانت مغطاة بطلاء مصقول . وشعاع من النور يأتي فيؤكد خطوط قوامها من ناحية مغرب الشمس .

ومع ذلك فإنَّ هذا المشهد الرائع ليس مقلوباً فحسب ، بل هو أيضاً منقطع مبتوت الاتصال . فأشعة الشمس التي تكسر هذه المرآة كلها ، تقطع صورة الخطوط المضيئة التي تقع حتى أبعاد متساوية المسافات عمودية على صور جذوع الأشجار المنعكسة في الماء . وتبدو الرؤيا كأنما هي من وراء غلالة من الإضاءة الباهرة ، تكشف عن هبوات دقيقة فيها لا عداد لها معلقة في طبقة المياه العلوية . أما مناطق الظل التي تختفي فيها هذه الجسيمات الدقيقة ، فإنها تصدم العين بلمعانها . ومن ثمَّ فإنَّ كل جذع من جذوع الأشجار ، تقطعه ، على مسافات متساوية إلى حد كبير ، سلسلة من حلقات غير مستبينة المعالم (تذكرنا مع ذلك بالأصل) ، مما يضفي على كل هذا الجزء من الغابة ـ التي تغوص في الأعماق ـ مظهر شكل مربع الأضلاع .

وفي متناول اليد ، على مقربة جداً من الضفة الجنوبية تتصل الأغصان ، في

الصورة المعكوسة ، بأوراق شجر قديمة مغمورة في الماء ، محمرة اللون ولكنها لاتزال كاملة لم يتحيف منها الماء ، يتضح وشي أطرافها المشرشرة على القاع الموحل ـ أوراق شجر السنديان .

وقد ظهر إلى اليمين شخص يسير ، دون أن تصدر عنه نأمة من صوت ، على بساط الأرض الغمقة ، متجهاً نحو الماء ـ وهو يتقدم حتى حافة البركة ، ثمَّ يقف . ولما كانت الشمس تضرب عينيه مباشرة ، فإنَّ عليه أن يخطو خطوة إلى جنب ، لكي يقي بصره منها .

وعندئذ يرى سطح البركة التي تقطعه الخطوط . ولكن صور جذوع الأشجار المعكوسة تختلط في بصره بظلالها ، في بعض أجزاء منها على الأقل ، إذ أن الأشجار التي تقع أمامه مباشرة ليست مستقيمة الخطوط كل الاستقامة . ومن ناحية أخرى فإنَّ بهرة الضوء تحول دونه وأن يتبين شيئاً ما ، بوضوح . وليس هناك ، من غير شك ، أوراق سنديان تحت قدميه .

كانت هذه البقعة هي غايته . أم أنه يدرك الآن أنه ضل السبيل؟ بعد أن يلقي بضع نظرات حواليه ، لا يقين فيها ، يستدير نحو الشرق ، من خلال الغابة التي لاتزال صامته ، من الطريق التي جاء منها .

***

المشهد خـــاو من جديد . . والشمس ، إلى اليسار ، لاتزال على نفس الارتفاع ، ولم يتغير الضوء . وإلى الأمام تنعكس ذؤابات الأشجار المستقيمة الناعمة ، في الماء دون غصون ، عمودية على أشعة المغيب .

وفي قاع خطوط الظل ، ترنو صورة أعمدة جذوع الشجر ، باذخة الوضاءة ، مقلوبة وسوداء ، مطلولة مغسولة على نحو فيه روعة الإعجاز .

جـم.جـلي كليزيو

●

لي كليزيو كاتب فرنسي معاصر ، من أبناء الجيل الذي أعقب الوجوديين العظام ، وعاصر كتاب الموجة الجديدة في فرنسا .من رواياته التي أثارت هزة من الاهتمام ـ وما تزال تثير ـ «المحضر» و«الحمى» و«الطوفان» . وهذا فصل من كتابه «العمالقة» الذي نشر عام ١٩٧٣ . نوع من الكتابة السائدة اليوم ، التي تخلصت من مواضعات الرواية ، والتي نجد فيها أساليب الحكى والرأي وتحطيم أسوار اللغة ، لا مجرد التحطيم الذي أصبح اليوم كلاسيكياً ، والذي ابتدعه لنا جيمس جويس ، بل هو تحطيم يفيد من أساليب «البوب آرت» و«الأوب آرت» بحيث نجد في صلب العمل الفني مقتطفات من الإعلانات الواسعة الانتشار ، جنباً إلى جنب مع معادلات الرياضة الحديثة ، والألعاب التكنيكية للطباعة ، ومختلف الرموز والحروف من لغات قديمة وحديثة غريبة ، كأن الرواية اليوم أصبحت أيضاً من الفن التشكيلي !! .

اخترت من الكتاب فصلاً تقليدياً أو يكاد ، حتى لا تصدمكم هذه المغامرة . كم كنت أتمنى لو استطعت ـ واستطعتم معي ـ أن نتحمل هذه الصدمة ، حتى نعرف المتعة الحقيقية ، والبهجة الحقيقية ، الكامنة في الفن الحديث .ثم اخترت بعد ذلك قصة «الوراء» لكي نؤكد معاً هذه المتعة ، وتلك البهجة .

سوف تسقط الأقنعة

في يوم من الأيام ، سوف تسقط ، الأقنعة . كل الأقنعة وعندئذ سوف نصبح أحراراً . الحيطان العالية التي كانت تحول دوننا والنفس ، والأسوار الحديدية والأسلاك الشائكة ، سوف يتفكك ذلك كله في غاية اليسر ، لأنه لن تكون هناك أقنعة . ولن تردد الأرصفة صوت خطاك كما لو لم يكن هناك من حي غيرك على الأرض ولن يمسك البحر والجبال وحدائق المدن برأسك كما لو كانت كلها كلابة من حديد ولعلنا نسمع في النهاية كل الأشياء التي كنا نحلم بسماعها . ولعل أفكار الرجال لن تعود أسراراً . الصُدفة ملعونة . . . ويجب أن تختفي كل هذه الترددات ، كل هذه الشكوك . أن ثمَّ رجلاً ينتظر وينتظر منذ سنوات وسنوات ، لا يفعل شيئاً قــط إلا هذا : أن ينتظر ، سوف تنزع الكلمات نفسها وسوف نراها تظهر صافية ، أقنعتها . . لم تكن قط بهذا الصفاء وسوف نستطيع أن نضحك . سوف نستطيع أن نمشي في الشمس ، على شاطىء ما ، في أي مكان . أو أن ننظر إلى البحر ونسمع صرخات الطيور ، وسوف يكون ذلك حقيقياً . ذلك يحدث على الجانب الآخر أن يتمشى المرء دون غاية ، يكون المرء قد ذهب إلى هناك فعلاً .

الزمن ، كما تفهمون ليس هناك . ولكنه يحدث أحياناً . سوف تسقط الأقنعة وحدها . ليس ثمَّ من حاجة لأحد أن يسقطها . سوف تمحى من تلقاء

نفسها فجأة ، كما يمحو النور الظلام ، وسوف نرى الوجوه الحقيقية ، لن تعود هناك هذه القسمات التي تكذب ، وإيماءات الحقد والحسد والغضب والشهوة . لن تعود هناك هذه العيون الزجاجية التي تنظر إليك في غير مبالاة ، تترشح نظراتها من خلال عشرة آلاف زجاجة نظارات لاصقة ، وتُغيّرك نظراتها فتتحول إلى دودة ، إلى هُـــلام .

لن تعود هناك هذه الخيوط المغطاة بالأشواك الدقيقة التي تحقن في جلدك جرعات السموم . قبل أن تقضمك . لن يعود هناك هذا القرار للحدقات . إلى الفرار ، بكل سرعة ، بعيداً عنك ، من البعد بحيث ينفخ الفراغ فقاعة من الثلج حول وجهك . وتتباطأ أعضاء جسمك ، وتتوقف .

لن تعود هناك أسرار . كيف تتصور هذا؟ لن تعود هناك خطط ،تقصد شيئين أو ثلاثة في هذا الوقت نفسه وتستمتع بأن تعذبك . لن يصرخ أحد أبداً : (النجدة) سوف تكلم الناس لن تعود ثمَّ حاجة إلى الببغاوات . سوف يتكلم الناس ، ولهم وجوه مثل النجوم ، ولن يعرف أحد من أين يأتي النور . ذلك على الأخص ما سوف يكون جميلاً : لن يعود ما يدعو إلى البحث عن الشمس في المساء ، لن نعود نخاف الليل . الشمس تحفر حفرة تصيب المرء بالدوار بينما تغيب . وتلقي الأشجار بنفسها إلى الوراء ، بعيداً جداً . الجبال لا تطال ، وذراها دائماً تخفيها السحب وإنما ذلك لأننا لا نتحدث إليها .

سوف يتحدث الناس . لن يتحدثوا في سبيل الإقناع أو إخفاءً لصوت الصمت . سوف يتحدثون لأن ذلك سوف يكون سهلاً ، ولأن الحياة سوف تخرج من أفواههم مع الكلمات . كل شيء سوف يكون مملوءاً بالحياة . لن يعود ثمَّ شيء ميت ، أو شيء غير مفهوم . سوف يتحدث الناس ، ولن تعود

كلماتهم تشبه انطلاقات شفرات الحلاقة . لن تعود أفواههم تشبه الفكاك . سوف يملأ الفكر العالم ، سوف يسكن في داخل كتل الأسمنت ، في داخل القنوات السفلية تحت الأرض ، في داخل الروافع ، في محركات الطائرات . لن يعود الفكر محبوساً في صناديق الجماجم ، ولا في شرائط التسجيل . لن يعود الفكر سجين قاعات السينما ومدرجات الجامعات وبنايات شركة (ايسو ستاندارد) عندما تسقط الأقنعة ، هكذا ، من تلقاء نفسها ، فسوف يصبح الأمر كأنه ليس هناك إلا رجل واحد وامرأة واحدة . كل التقسيمات القديمة ، والملكيات الخاصة ، والقلاع والحصون ذات الجسور المرفوعة ، والمقاصير والحواجز ، والشاشات ، والأسوار ، والدروع وزنازين الأسمنت ، كل ذلك سوف يختفي . وسوف يمكن للريح أن تهب وللنور أن ينفذ ، وسوف تسمع الأصوات وترى الحركات والإيماءات . الزواق الكثيف يخفي الجلد ، هناك نظارات على كل العيون ، ولكن الحياة سوف تنتزعها ولن يعود هناك إلا علم واحد : علم الحرية .

لن يعود الرجال كالأحجار ، عندما تسأل الرجال يصبحون بلا حراك ، لكن الحياة سوف تدخل إلى داخل الأحجار ، وسوف تتمدد الأحجار وتنقبض كالقلوب . في يوم من الأيام لن تعود هناك عندئذ هذه المدن الميتة بحلقاتها الصامتة ، سوف تغلي العمارات وتفور ، وتقذف الأنفاق بنبض حممها تحت الأقدام ، وسوف يكون للطرق عنف سنان السيوف تخترق الغابات ، وحقول حشيشة الدينار ، مهجورة ، سوف تمضي من أفق إلى أفق في ثانية من الزمان ، «بروق» من الأسمنت تفضي إلى المستقبل . لن تعود هناك مرايا خلفية عاكسة .

سوف يأتي ذلك ، وسوف ينفجر الوعي الفردي كقنبلة يدوية . هناك كل

هذه القوة في كل وجه ، كل هذه المعرفة . لن يستطيع الناس دائماً أن يناموا . دُوار العجلات التي تدور ، والهوة التي تحفر غورها في مراكز محاورها ، سوف تولّـد الافتتان ثمَّ يولد الافتتان الغضب . وفي الغضب تظهر الحقيقة ، في يوم من الأيام . الحقيقة التي تدمر الأبراج وتسوي الحيطان بالأرض . لن تومض المصابيح الكهربائية وتنطفىء ليل نهار ، لكي تستعبد . سوف تدخل في اللغة . المنارات اليوم مصوبة نحو العيون ، لكي تُعمى ، لكي تنتزع الاعترافات . ولكن العيون مبطنة بالمرايا ، سوف تعيد عكس النور في يوم من الأيام وتُضاعف عشر مرات من قوته ، العيون منارات تستضيء بدورها وتحرق الليل .

سوف يتعلم الرجال أن يتكلموا . هم اليوم يظنون أنهم يتكلمون . تنفتح أفواههم وترتعش لهاتهم لكننا لا نسمع شيئاً . لم تولد الكلمات بعد . ما زالت الكلمات سجينة ، كتل الحجر مختفية في داخل لوحات الحديد المصهور وكرات البلاستيك . الكلمات منقبضة من اصابتها بالتتانوس . كيف تستطيع أن تعبر الحناجر وتتحرك في الهواء بينما كل شيء متصلب جامد؟ ولكن في يوم من الأيام لن يعود هناك عبيد ، وسوف تستطيع الرغبة أن تذرع الفضاء . حرة . سوف يأتي ذلك . لقد بدأ ذلك بالفعل . منذ الآن ماتت الكلمات ، وهناك كلمات أخرى قد اخترقتها السهام وهي تدمي . منذ الآن هناك حصوات ألقيت عفو الخاطر ، في غير أحكام ، وحطمت بضع لوحات من الزجاج ، ودمرت بعض مكبرات للصوت .

هناك قوى مخيفة حقاً في داخل أعمدة الحديد ، هناك الكثير من العنف المضغوط ، في الأشياء الصامتة ، في دعائم الطائرات ، في بلاطات الحرير الصخري ، في أنابيب النيون ، في صناديق المحركات ، في آبار المناجم ، في

أسنان المطاحن ، في آلات الطرد المركزي ، في خلاطات الأسمنت ، في آلات الحصد والجمع . هناك الكثير من الجبروت في وجه واحد يلمع بشحوب في العتمة وجمجمته القُمعية مهددة كأنها مقدمة قنبلة .

لن يكون العنف مدمراً ، في يوم من الأيام ، لأنه سيكون حراً . لن يقتصر ضغط الفكر على داخل ما يشبه آلات الطبخ الذاتي ، وسوف ينسكب إلى الخارج . وسوف تطير الكلمات بحرية ، ولن تصطدم النظرات بالأسوار . سوف تنشرخ المرايا وتتطاير ، وستنزلق شظاياها على الأرض بلورات صغيرة من النور ولن يصدم أحد بصورته .

لن يكتب الناس على صفحات من ورق المرايا ، لن يكتب الناس لأنفسهم ، ولا لكي يدمروا الآخرين . سوف تصبح صفحات الورق شاسعة ، فسيحة كالوديان ، فسيحة كالبحار . لن تعلق العلامات في النوافذ . خِرقاً قديمة ، أعلاماً قديمة . لن تعود العلامات كالعبيد ولن تصنع من الناس عبيداً . سوف تتكلم بحرية ، وتنبثق في نفس اللحظة التي تكون فيها ضرورية . دون تردد ودون تأخير ، ولن تكون أوامر من نوع : (إلى الأمام ســر . . ! وقوف ! جلوس ! رقود !) بل ستكون أشبه بتنهدات الحب ، أو أغاني الطيور أو صرخات الضفادع أو أصوات البحر .

سوف تصبح الكلمات حرة ، ستولد من أجل هذا . سوف تستدير ضد من أرادوا استعبادها وتقتلهم . سوف تصبح من الجمال بحيث لا تشبع العين من تمليها ويفور الريق في الأفواه عندما يريد المرء أن يتلفظ بها .

سوف تثأر الكلمات لنفسها ، في يوم من الأيام ، تُحطم قواقع التعاويذ والتمائم وتنسكب إلى الخارج ، كالثعابين ، في يوم من الأيام . تنبثق من

البطاقات الملصقة على الزجاجات التي كانت تحبسها . وتجري في الهواء الأسود فكاكها مثل فكاك الزواحف المجنحة القديمة ممدودة إلى الأمام مثل السكاكين المناشير ، تنطلق أمامها في خط مستقيم وعندما نقتل سادتها نسمع صرخات ثأرها :

اشربوا . . كوكـ . .كوكا كولا . . فـ .ا . نـ . تـ .ا . فانتا .

في يوم من الأيام سوف تسقط الأقنعة ، سوف تسقط . سوف تسقط الأشياء من سادتها . سوف تلتهم محركات السيارات أصابع سادتها . سوف تخنق العطور السيدات بنظراتهن الغائبة . الكونياك والباتيه دي فوا والبلابل المشوية ورؤوس الخنازير المطبوخة في دهنها وصغار الديوك والمحار والجاتوه المشرب بالروم والجبن السويسري ، وحلوى الميرانج سوف تسد الحلوق ، وتملأ الأنوف والعيون ، وتنطبق على الرئات ، في الجبن الطري سوف توجد إبـر مخبوءة تثقب الأمعاء وفي الليكير سوف يكون هناك سـم الستوكران والداتورة وفي اسطوانات السجاير الصغيرة التي تعبق برائحة العسل والنعناع سوف يكون عقار الـ هـ .س .ن .

لن يستطيع أحد أن يسيطر على قوى الحياة طويلاً ولا أن يسترق العبيد بلا نهاية . في يوم من الأيام ، وبلا إنذار ، سوف يحطمون أغلالهم ويذبحون من يمسك بسوط في يده . لا يحجز أحد سائلاً إلى الأبد ، سوف يكسر الزجاج ، وينسكب ، ويسيل إلى البحر ويغرق .

سوف يتعلم الرجال والنساء أن يحب بعضهم البعض ، أيضا لن يحاولوا أن يقهروا بعضهم البعض ، ولا أن يدمروا بعضهم البعض . سوف يكونون ، على القدرة ، قريبين من بعضهم البعض ، كما لو لم يكن الخوف قد وجد أبداً . لن

يحبوا بعضهم البعض بالجنس فقط ، أو بالفم فقط ، سوف يحبون بعضهم البعض بالعيون ، الآذان . والشَعر ، والأقدام والأيدي ، بأفكارهم ، بأعصابهم ، بكل أوصال أجسامهم ، ولعل ذلك أن يكون كما لو كانوا قد ولدوا توائم سيامية ، دون أن يعرفوا .

لكن ذلك لم يظهر بعد . لم تبدأ بعد الأعياد الوحشية . الرقصات وموسيقى الحيوانات . لأن الكلمات ، والإيقاعات ، والألوان ، مازالت سجينة ، الرجال والنساء محبوسون في زنازين مغلقة ، نظراتهم مازالت بعيدة ، بعيدة ، جداً محجوبة بسلاسل من الزجاج ، من يخاف الكسوف؟ عندما يُسأل الرجال يتحولون إلى أحجار ، وحيطان البنايات تسوّر السماء . ولا يمر الهواء ولا تمر الرياح ولا يصل النور . وتومض المصابيح الكهربائية وتنطفىء ليل نهار طاعةً لأوامر الآلات . أما الكلمات فانظر إليها ملصقة على بطاقات الزجاجات أو مبلولة على قشر مواد من البلاستيك .

كيف يأتي ذلك كله؟ الانتظار . . . الانتظار . . . ولكن الخوف يبلغ من العظَم ، أحياناً بحيث يُفرغ داخلَ الجسم كله ولا يترك إلا قشرة الجلد . يخنق الخوفُ الفم ، ولا تبقى كلمات . أقام الخوف أسواراً عالية حول العنق بحيث يبدو أنه لم يكن هناك رأس .

في يوم من الأيام سوف تسقط ، كل الأقنعة ، خطوط الأسلاك تمتد بسرعة ، تريد أن تغطي وجه الفضاء كله . ولكنها لا تمتد بسرعة الغضب الكاسح الذي يتولد من الرغبة . سادة الآلات يصنعون الخوف طوال الوقت ، بعلمهم يرسلون على الأرض موجات الخوف . ولكن الخوف يستدير ضدهم ويحطم وجوههم . الأنوار الباهرة التي اخترعوها ليعموا ، والرعود ليصمّوا ، ترتد إلى

عيونهم وآذانهم ، والـجَـمَـال الذي يُصفدّ يرتد إليهم بإبرة ويحقن شرايينهم بثملة .

أقنعة السيلوفان نفسها تتحرك ، وهي تفور وتغلي ثمّ تتجمد على وجوه السادة والكاميرات الملعونة التي كانت تصور مشهد الحياة من أعلى الشرفات ، الكاميرات التي كانت تُبقي العالم تحت نظرة الثعبان ، انقلبت فجأة على محاورها ، وتنظر إلى الناظرين .

الــوراء

اليوم ، ١٥ أبريل من العام الخامس والعشرين بعد ميلادي . وقبل ذلك ، المشي . القطار يسير وحده ، في الليل ، وزجاج نوافذه يرتعد ويصطفق لاشك أن السرعة قد تغلغلت إلى كل عجلة ، وكل لوح من الصلب علاه الشحم والقذارة ، وكل شيء يهتز ، في هوس جموح . وأتحرك وأهتز أنا أيضاً ، في مكان ما من أعماق جسمي والاهتزاز يصك بنيان أعضاء جسمي كهربياً ، في دغدغات ، في نبضات ، كأنه غزو من الميكروبات ، تماماً . لست إلا هذا ، اهتزاز . والموجات القصيرة الجافة تنتشر في شرائح جسمي ، في عظامي ، في حزم أعصابي السرعة الصلبة الجامدة . ويخرج عني شيء ما ، ضخم لا يقاس ، نقي ، بارد يشبه شفرة سكين طويلة . وأنتظر . وقبل ذلك ، المشي دائماً ولعل وجهي قد أصبح أكثر ، قد أصبح ليناً بالفعل . أحس عظمتي الفخذ والساق قد تصلبتا ، وجلد البطن قد تغضن . لا شيء بعد . . وأمضي إلى أبعد من ذلك : القلب الآن ، القلب الذي تسارعت نبضاته بشكل محسوس ، ووهنت دقاته بشكل محسوس . وضاقت الرئتان ، فجأة . والسرعة ، السرعة دائماً ، تلك التي تخرج عني . تتراكب صور معقدة ، لا جدوى فيها . أصداء متطاولة . ونفث وفحيح ، لعله أشبه بأصوات إزاحة الهواء في حريق . تماماً إنني في مواجهة حريق عملاق يضرم نصف المدينة . والحريق يمر ، ويعود وأنا لا

أتحرك . ما زلت لا شك في داخل شيء أشبه بالقطار ٢٠ ، ١٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٥ . . . شيء ما يتناقص ، يتناقص بسرعة . لا أستطيع احتجازه . كان شيئاً ما يمضي ، يسحبني في شهيق ، قوة هاضمة نهمة ، لا أدافع عن نفسي ، أو لا أكاد ، ما من شيء يمكن عمله . القطار ، هو أنا . أفهم الآن ، وماذا أستطيع أن أفعل؟ أيمكن للمرء أن يصارع قطارا؟ النفس القوي ، والقضبان ، طويلة بشكل مخيف ، ومستقيمة ، قد دخلت فيّ بعنف يمزق كل شيء ، والعجلات ، والزنبركات المشحمة ، والصفارات ، والنوافذ الفاغرة المفتوحة على مربعات سوداء من الليل والهواء ، على الثلج ، والسماء ساكنة بلا حراك ، والقطار الذي يجر إلى الأمام ، مستقيماً إلى الأمام ، ويزفر تحت حمله ، دون جهد ، عبر الريف العاري ، ذلك كله أنا ، أنا الذي أشق طريقي ، أنا غاضباً أنا شرساً ، أنا كثور مجنون . أمر بالمدن ، بسلسلة من المدن تومض الأنوار فيها وتنتقل . تجري الأسلاك أمام عيني ، وترتفع ، وتنخفض ، وترتفع ، وتنخفض . . . إلى آخره . دخل البرد إلى جسمي مع الحركة ، وأصبحت أفقياً ، مسطحاً على الأرض ممدداً عليها كمياه تفترشها . وأجري في كل مكان . ما من شيء يحتجزني . أغزو كل الثقوب . أصطدم بكل النتوءات وأغطيها ، وأنساب متمدداً ، وأطفو ، ولي أمواج .

نفس الأرقام دائماً ، معدودة بالمقلوب ، تفلت مني ، تلك هي الثواني بلا شك ، الثواني العقيمة التي لا توصف والتي تمزق كل الأشياء مزقا ، وتخط القسمات ثمّ تمحوها ، وتقتطع المشاهد ، والجمل ، والعبارات والحروف . وما من شيء أبداً بعد الآن صوت أسمعه ، ولكني لا أعرفه ، يتهجى اسمي على ذلك النحو ، لكنه يشوهه ، ويتحيف منه ، ويجعله ينقبض وينكمش . وبينما

يتحدث هذا الصوت عن اسمي وحده ، أحس أنني أذهب إلى مكان ما ، لا أعرف أين ، بعد ، ولكنه في نقطة محددة تقع في الخارج ، وتجتذبني بشكل لا يقاوم ، بحركة قوتها المجهدة .

تسحب في شهيق ، تبتلع

هنـري بيير توســان Heneri Pierre Toussaint

هنـري بيير توســان Heneri Pierre Toussaint

هنـري بيير توســان Heneri Pierre Toussaint

ري وســـ ri ouss

ري يير توسان ri ier Toussaint

يير توســـ ier Touss

توســـ Touss

توســـ Touss

وســـ ouss

ســـ ss

هذا ما أصبحت عليه . ويرعشني شيء ما ، كأنني كومة من الجيلاتين . وتفلت مني أشياء كثيرة ، تقذف بنفسها خارجي ، تفرغني . ويبدو لي أنني قشرة باخرة كبيرة ، وأن الرجال والفئران تفر مني ، وتتشتت بعيداً وقد استأثر بها الهلع ، بينما أغوص بثقل إلى داخل البحر . سوف أصبح صحراء ، قناة بئر جوية ، تأتي من لا مكان ، وتفضي إلى هاوية .

فقد جسمي الكثير الآن . رأيته يذوي في شيء أشبه بالشباب ، ويصغر . ما من عضلات فيه ، منذ الآن ، أو لا يكاد توجد فيه عضلات يداي قصيرتان

مربعتان ، وقد دخلت العروق فيهما ، كما كانت قد خرجت ، تحت الجلد الأبيض ، كل شيء أملس ، سهل . جردتني الأرقام المتناقضة أكثر ، وأمضي ناكصا ، ناكصا ، ناكصا ، إلى أبعد ، إلى الوراء ، إلى الوراء ، في عنفوان سقوط أفقي . تحيطني صرخات لا أعرفها . وأشكال أيضاً ، متخذة قوالب مثلوجة ورقيقة . ويجري هذا التبخر في هدوء دون حرارة دون قوة ، والمياه التي تخرج عني لا تترك شيئاً عارياً إلا حبيبات بلا زوايا مستديرة ومصقولة كالأسنان . أهي السرعة ما زالت ، والحركة في داخلي؟ . لم أعد أرى قطاراً الآن ولا قضبان ، ولا اتجاهاً . على العكس ، يبدو لي أنني ساكن لا حراك بي ، أغوص حتى الخصر في قلب شاطيء من الطين . وأتدهور ، الى تحت . حتى الخصر ، حتى المعصمين . حتى الأضلاع . الصدر ، والكتفين . قاع العنق ، والعنق ، مؤخرة الرأس ، والحنجرة . ثمّ الذقن . الفم . الفم . فتحتي الأنف ، تغوصان في الرمل كمصيدتين يرتد بابهما يغلقان كل شيء يضغط عليّ ، وما زلت أغوص ، أسقط في هذه البالوعة في الحفرة المتقيحة التي تحللني بحرارة ، ببرودة ، شيئاً فشيئاً ، بكتلتها المهتزة المتذبذبة الملونة بالسباخ العضوي هذه البهيمة الغنية الحية ذات الأمعاء الطويلة الحمضية العفصة . حتى الخدين والعينين . عيني اللتين تغمضان على العالم الرملي .

وأنسى . يمر الوقت ، ويسحب مني حركات ميزانه . ما زال الصوت يعد بالمقلوب : ١٥ ، ١٤ ، ١٣ ، ١٢ ، ١١ ، كل ذلك قد أصبح وثيق الضيق ، ناصع البياض . أجلس على مقعد من القش وسط ساحة الشمس . تدخل الأصوات من فمي . وتمتزج فيه ، خشنة وعرة متداخلة في فوضى . وتتشكل كلمات ، وتتشوه وتنطوي طيتين ، وتذوب .

سيجارة . تغيرات . فرار . أشواك . ضفائر . سخرية . بحيرة . إيجار . فأر ، الأفغان ، شيطان . الضمير . . أمريكي . ١٥٪ . . أدب . جور . . أو . .رنا . . ما من شيء يستدعيها . وهي تأتي مع ذلك ، تدخل ، إنها هناك ، صادرة عن الخارج . من الحقول الواسعة المبهمة . آتية من العالم ، من سطوح الأرض الندية ، من تلك الأراضي الغفل الخالية المثقلة تسقط المتاع ، لابد أنني أتيت من هناك . لابد أنني اغتذيت بذلك ، ووالداى ، إذا كان لي والدان ، يجب أن أبحث عنهما في تلك الأكوام .

ما زلت أنكص إلى الوراء . على عيني الآن غشاوة ، رقيقة معتمة ، شيء يتكاثف على بصري ، كأنه نظارة طوال البصر .

وأشهد آخر التحولات في اسمي : «هنري ! هنري ! «ري !» «ري ! ري ! ري !» ذلك اسمي يهتف به الناس . ضحكة مجنونة ، والفم فاغر ، تتدافع على طول الحنجرة وتتدحرج وتفرقع كانفجار الرعد ، وتتحدر ثمَّ ترتفع ، وتتجاوز الشفتين ، وتغني في الهواء ، وتدفع ستائر الهواء غير المتطورة . ثمَّ تتحول هذه الضحكة إلى ألم ، ألم مبرح ، يولد في غرفة الرئتين المضغوطتين ، قادماً من الحجاب الحاجز المشلول ، أشبه شيء بتيتانوس طويل داخلي ، يطارد روحي من جسمي ويدفعها ، وينطلق لاقتناصها ، ويستأصل شأفتها .

مـا هـذا؟ إنني قد صغرت من جديد ، لست أستطيع القول إلى أي حد صغرت ، ولكن الأشياء تبدو لي ، فجأة ، عملاقية . وأنا الذي كنت أميل إلى الطول ، ها هي ذي المائدة ترتفع إلى مستوى أنفي . ولكني لست دهشاً ، حتى . لا أترك الزمن يتلاعب بي على ذلك النحو . أدور وسط الأشياء كأنني أخترق غابة : الموائد ، الكراسي ، السرر ، المقاعد الواطئة بدون ظهر ، كلها

أشجار . ونواصيها هائلة الارتفاع ، وأنا صغير جداً .

لم يقبل مـــد الأشياء القديمة البالغة القدم . ما عدت أنا نفسي منذ فترة من الزمن . لست أدري كيف أقول ، ولكن الصرخات والنداءات ترقص . والأيدي . يسود الاضطراب كل شيء ، وهذا الفراغ قد دخل إلى جمجمتي ، عن طريق عيني ، وفمي ، وأذني ، وأنفي ، فاغرة كلها ، وانصب في جسمي كله ، مثل الماء ، مثل الماء . ١٠ ، ٩ ، ٨ ، ٧ . . . إنني موثق إلى الأرض بعامود ، بالرخام . أو لعلني راقد على بطني ، مثلوج ، على صورة فوتوغرافية . نعم ، هناك : على رصيف ، قريباً من امرأة ، على ضفاف الماء ، ومرتقى مستند إلى حافة . وجبال وراء ظهري ، وفوق رأسي مستطيل كامل من سماء بلا سحب . ووجهي الآن أملس ، وشعري قصير لاصق بالرأس ، وحول عيني هالتان . لا أتنفس ، أو لا أكاد . ذلك هو الأمر إذن ، إنني قد عدت إلى عالمي ، ذلك المشهد المتحجر ، تلك السيارات الثابتة ، هؤلاء المارة وقد أوقفوا في مسيرتهم ، تلك الطيور المكسورة في عنفوان طيرانها ، ذلك كله ، مسطح تماما ، ساكن هادىء ، رتيب ، متجمد ، مصقول ، موقوف ، لا يمس .

ومع ذلك فهناك دائما ذلك الشيء نفسه الذي يذهب ، يفلت ، هذا الحيوان الذي يجري ، يفر ، ويتخلق من جديد . وكأنما لا أعود أنكص بعد الآن . لا ، قد توقفت المراوغة . والفعل الذي كان يتم منذ قليل ، بالمقلوب ، ها هو ذا قد عاد ، بعد فترة توقف ، حيث كان قد تجمع على نفسه ، واحتشد ، قابعاً مكوماً على نفسه في الظلام ، ثمَّ ها هو ذا يثب دفعة واحدة ، وينطلق ، ويبدأ من جديد ، وهو في هذه المرة يجرفني معه حقا . ما من شيء يكبحه . إنني حـــر بملء حريتي . لم أعد أنتظر شيئاً ، ولم يعد جسدي عائقاً . وأهوى ، وأتدحرج

على الطريق الجديد ، مستقيماً قائماً ، بكراً عذرياً ، على الطريق الفسيح الناصع البياض البالغ الهدوء . ها هي ذي السرعة الحقيقية . لن يوقفني شيء . وسمع الصوت الإيقاعي يند عن الثواني التي تنصهر وتلتحم ، والدقات المكتومة عن قلبي القنبلة ، وتمر الأرقام وتتصاعد وتتبني .

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ .

هنا حيث أكون ، لم يعد ثمّ نهار ، لم يعد ثمّ ليل ، لم يعد ثمّ شيء . هي صور فوتوغرافية تتوالى ، صور فوتوغرافية بلا تاريخ ، صامتة ، لا تظهر شيئاً ، لا تمثل أحداً . حيث لا ترى رؤوس ولا أشياء ، ولا مشاهد . أوراق ضخمة من الورق المقوى الرمادي ، أدخل اليها بسرعة شديدة ، وأخرج عنها بأسرع مما دخلت . ممر حقيقي بألف باب ، أتقدم فيه بخطى ملكية جليلة .

إلى أسفل الآن . نعم ، إلى أسفل بكثير . على أربع أرجل . الدوامات في كل مكان ، وأنا أيضا دوامة . الحر ، والبرد ، والوخزات ، الدغدغات يلتف اللسان في فمي ، وتمر الأنفاس بوهن . والكلمات ، أين هي؟ لقد اختفت . لم يبق إلا أشياء كالهالات المشعة ، نعم ، تلك هي ، هالات مشعة حول الأشياء . دفعات ترفع الجسم كله ، وتجعله ينزلق نحو الأهداف ، تلقيه في وسط المواد ، وتمزج مجموع ذلك كله مزجاً .

إنني قزم . لم يعد لي قوة . ترتعد كل فرائصي . الخوف من أن أترك هنا ، منسياً ، في حفرتي ، لست جديداً بأن يذكرني أحد ، بأن ينحني على أحد ، بأن ينظر إلى أحد . اتركوني طي النسيان . كل شيء كبير جداً ، حاد الزوايا ، والأنوار جارحة ، وهي تمر سريعة أحياناً ، طويلة أحياناً ، تجر على حدقتي أثواباً

بيضاء أبدية ، لؤلؤية . خطفات برق ، شموس كهربية . إلى اليسار ، إلى اليمين ، حفيف ، وصرير خشب مقشور . وأنا محاصر على امتداد من أوراق النشاف ، والتراب يتحرك في وسط روائح الجو الحريفة الحاملة . وكل شيء يصعد في داخلي .

تندفع أمواج حمضية من بطني ، وتنحّي جدران الأغشية المخاطية ، وتصعد ، تصعد ، تصعد . أتقيأ العالم كله في كل مكان . أغرقني الطوفان ، ثمَّ جاءني النداء ، وانتزعت ، وهززتِ . مهدهد ، أتأرجح . ثمَّ تأتي ملاءات أخرى ، وأغطية شفافة ، مغناطيسية ، تستقر وهي تهفهف على رأسي ، وتغطيه ، غطاء بعد آخر . كأنها الرغاوي .

أي رقم؟؟؟ ٢؟ ١؟ أقل من ذلك أيضاً؟ .

المستنقع كبير حقاً . تتصاعد أبخرة هنا وهناك ، في كل مكان . والروائح المسكرة أو الحريفة تحوم ، وتدور وتتقلب . وتنبثق حيوانات بطيئة جدا من الطين ، تلمع قشرتها الصدفية المسورة تحت النور ، وتنفض قطرات على البثور . تخرج هذه الحيوانات أعماقها من المستنقع ، وهي تتمطى بفقراتها العظيمة تمطياً طويلاً ، ثمَّ تنظر إلى جنب . وعيونها المفتوحة تثقب درع الطين . وفي سماء مليئة بالأبخرة ، ترتسم علامات ثقيلة ، قضبان كثيفة ، فحمية تتفتت شيئاً فشيئاً في الرياح . والبرد في بعض الأماكن ، من الشدة بحيث ترى بلورات الثلج تتشكل في الهواء ، كأنما تتشكل على زجاج . وفي أماكن أخرى يشتد القيظ ، صيف رطب فادح الثقل ، وترتسم خطوط حلزونية في برك الأرض المشقوقة . وترتطم الفقاعات ، وتصطرع ، ثمَّ تنفجر وهي تقذف حواليها برذاذ قذر . كل شيء يفور كل شيء يصطدم . وتتدحرج أمواج

مكتومة إلى كيلو مترات كاملة من الأعماق ، وتتأثر القشرة الأرضية بمسيرة هذه الأمواج فتسري فيها ارتعاشات لا تكاد تحس . الجوع . العطش . متكمشاً متقبضاً يغمرني العرق . الحمى ، أية حمى؟ حنجرتي مفتوحة ، حنجرتي مبسوطة عن سعتها لتمتص الهواء والحياة ، والسوائل المغذية ، والنسيم الرطب ، لإطفاء هذه النار الملتهمة التي تضطرم في الأحشاء ، لتهدئة هذه الالتهابات ، هذه الشروخ والانشقاقات ، لإغراق هذه الطيات من الجلد الجاف ، للتنفس للري ، للدخول حيا في الجو ، للسباحة للطيران ، للزحف والحبو ، للطفو للتمدد ، للترعرع ، للحياة ، الحياة ! والصرخة البحاء ، الثاقبة ، تقترن بها صرخة أخرى ، صرخة أنين كأنها تندٌ عمقاً يكسر الحجر ، هاتان الصرختان مجتمعتان تواصلان الصعود نحو السقف .

ثم بعد ذلك ، في الطريق إلى شيء كالموت . العام صفر .

نـاتـالي ساروت

●

قبل بداية الخمسينات كانت ناتالي ساروت رائدة من رواد الموجة التي عرفت فيما بعد باسم «الرواية الجديدة» ففي عام ١٩٤٨ ظهرت أولى رواياتها «صورة مجهول» . . وقبل ذلك ظهر كتابها «انتحاءات» (تروبيزم) ، وهو مجموعة نصوص قصيرة . وفي ١٩٥٦ ظهرت مقالاتها الشهيرة مجموعة في كتاب «عصر الشك» وهي الدراسة التي تناولت فيها تطور العمل الروائي بأسلوب الخلق الفني ، في ضوء ممارستها لهذا الارتباط الذي عرفناه فيما بعد ، وفي هذا الكتاب بدأت تتأكد سمات نظريتها في الانتحاءات .

وترى ساروت أن الفرد هو كيان متحرك باستمرار ، تتدفق في داخله تيارات لا تتوقف ، تسميها الكاتبة انتحاءات ، وعلى الحركات الأصلية المهتزة باستمرار في النفس ، وفي علاقة الفرد بالآخرين . ولكن الأسلوب التقليدي في الخلق الروائي إنما كان يعتمد على تصوير أنماط تقليدية من الخارج ، أو وضع تركيبات نفسية من الداخل بحيث يصبح ميدان الخلق الفني ترسبات متحجرة ، ونماذج سابقة التشكيل ، بينما الواقع عندها حركة لا يتوقف تدفقها سلباً وإيجاباً ، في انسياب متصل ، متماسك القوام عن نزعات لا نهاية له منها ، ولا جمود في انصبابها وانسكابها وتداخلها .

هذه الذبذبة الدؤوب ، هذا النبض المتراوح الإيقاع في غير صمت ، هذه الاهتزازات التي لا يكاد الوعي يمسك بها حتى تفلت منه ، هي الحقيقة .

والمشكلة ، بعد ذلك ، هي كيفية الصياغة الأسلوبية ، وإقامة البناء الفني ، وترجمة هذا الوعي الذي لا يكاد يكون من الممكن الإمساك به ، إلى كلمات .

ولكن المشكلة ليست شكلية بحتة ، بل ليست شكلية على الإطلاق فإنَّ كل جهد الخلق الفني عند ناتالي ساروت هو كيف يتأتى تجاوز التجديد الشكلي في ارتباطه ارتباطاً عضوياً بما يسميه سارتر «الرؤية البروتوبلازمية» لعالمنا الداخلي بعد أن ننزع أحجار المألوف والشائع والمعروف ، فنجد تحتها انسيابات وتوقعات وتسايلاً للعصائر والسوائل الهيوية ، وحركات متذبذبة لا يني ترددها ، كأنها حركات الأميبا الأولية .

إن الرؤية هنا تعتمد على إعادة خلق هذه المادة الحيوية إذ تضغط الكاتبة عليها . وتعتصرها ، وتشدها ، وتضخمها أو تفتتها ، حتى تفسرها لنا ، وتترجمها ، وتعطيها صوتاً ، وترغمها على أن تسلم لنا صورة الواقع الجديد .

إذن تحاول ساروت أن تُوقع المستحيل في شباكها ، وخاصة في إدارتها للحوار ، إذ هي تنقل عن تلك اللغة الداخلية المستمرة الانصباب ، وتعيد تشكيل الدراما الداخلية ، بما فيها من عناصر مرهفة غاية الرهافة ، من اقتحامات ، ونكسات ، من اندفاعات وارتدادات ، من انفجارات ولدغات واغتصابات ، من سخاء في العطاء ، وإذعان للإرغام ، من أخذ وعطاء مع شركاء حقيقيين ووهميين ، وجدل لا يتوقف بين الوهم والصحو والحلم والواقع .

والقصة التي تقدمها هي بداية روايتها «هل تسمعهما؟» ، التي نشرت في عام ١٩٧٢م ، وتقول عنها ساروت :

«لقد كنت أرى شيئاً . موضوعاً ، في مركز الرؤية . حيواناً من الحجر يستفز كل أنواع الهواجس في داخل مجموعة من الوجدانات التي توجد بينها روابط وثيقة ، وكانت المشكلة هي ترجمة هذه الرؤية الشاملة في صور مجسدة والوصول إلى إيقاع يقنص هذه الإحساسات التي تبدأ مهتزة اهتزازاً يتراوح بين الشدة والوهن ، وهو ما لا يمكن أن يصل إليه المرء إلا بممارسة الكتابة فعلاً» .

هل تسمعهما؟

توقف فجأة ورفع يده مشيراً بالبنان ، مصغياً بالآذان . . هل تسمعهما؟ وحنو آسٍ تلين به قسمات وجهه . . إنهما مرحان ، أليس كذلك؟ إنهما يستمتعان ، ماذا تريد هذا ، ما يحدث في مثل عمرها؟ نحن أيضاً ، كنا نضحك هذه الضحكات المجنونة . . وما كانت ثمَّ وسيلة أن نوقفها . .

. .نعم هذا صحيح . .

ويحس كأنما شفتاه أيضاً تتمددان ، وابتسامة طيبة القلب تجمد وجنتيه وتعطي لفمه مظهر الفم الأدرد الأسنان . . هذا صحيح حقاً ، كنا مثلهما لا يتطلب الأمر شيئاً ، هـــه حتى يفتحهما . . نعم إنهما مرحان .

يصغيان ، كلاهما ، مرفوع الرأس ، نعم ضحكات في روعة الشباب والصبا . ضحكات غضة طازجة . ضحكات لا مبالاة فيها ولا هم . ضحكات فضية ، نواقيس صغيرة . قطرات من الماء صغيرة . إنبثاقات من الماء ، شلالات خفيفة هيئة الوقع ، زقزقة عصافير صغيرة . . إنهما ينفضان جسميهما ، إنهما يرتعان وما إن انفردا بنفسيهما حتى نسيانا .

نعـــم ضحكات صافية ، شفافة . . هذه الضحكات الطفلية الساحرة التي تمر من خلال أبواب الصالون حيث ذهبت السيدات بعد العشاء ، أغطية المقاعد الكبيرة من قماش الشنتر بألوانها الغابرة . ما من رائحة باقية في أواني الزهور

القديمة . ويحمر الفحم ، وتشتعل أخشاب الحطب في الموقد . . ضحكاتهما البريئة ، المتمردة ، فيها ثمة قليل من الخبث والمكر . تنصهر وتتلاحم . . غمازات الخدود تضرجها بالاحمرار . الشفرة في الألوان ، استدارات الجسم ، ثياب طويلة من التل . الدانتللا البيضاء البروديريه الإنجليزي أحزمة مموجة اللون ، أزهار مرشوقة في الشعر وفي صدر الفساتين . . تتناثر النغمات النقية لضحكاتهما البللورية ،إنهما يستمتعان هل تسمعهما؟ .

السادة الجالسون حول المائدة ويحتسون البراندي . . كل من الطفولات التي لا هم فيها ولا مبالاة ، قد أودعت هنا تلك الكثافات من الأمان ، من الطهارة الهادفة يتحدثون بصوت بطيء وخفيض ، ويسكتون لحظة لكي يستمعوا . .

نعـــم . . إنهما مرحان ، هذا ما يحدث في مثل عمرهما ، والله وحده يعرف ماذا يمكن أن يضحكهما . . لا شيء يمكن أن يقولاه أي شيء يكفي أن يضحكهما . . لا شيء . . لا شيء على الإطلاق . . لا شيء يمكن أن يقولاه ، انطلقا يضحكان ، ومن المحال أن يحتجزهما شيء ، ذلك كله أقوى منهما . .

ومع ذلك فقد كانا متعبين . نال منهما الكلال . . كان اليوم طويلاً وهواء الريف والرياضة . . يرفعان اليد إلى الرأس . ويربتان على الفم الذي تفتحه ثؤابة مستخف بها ، وينهضان بإشارة تبادلاها . . إشارة لا تكاد تُلحظ لا ، ليس ثمّ إشارة على الاطلاق . . بل . . لـمَ لا؟ فقد حانت اللحظة ، أليس كذلك حين لم يعد من سوء الأدب أن يستأذن المرء في النهوض؟ ويصعدان . . والصديق العجوز الذي جاء . . باعتباره جاداً ، ليأخذ في شيء من الثرثرة بعد العشاء يتبعهما بنظراته الوافية الهادئة .

وحدهما الآن جالسان قبالة أحدهما الآخر أمام المائدة الخفيفة ، وقد نحيث

الزجاجة والكؤوس لتفسح مكاناً لحيوان ثقيل من الحجر المحبب ، وقد رفعه هذا الصديق من مكانه على الموقدة . ووضعه بحيطة وحذر هناك . بينهما وتتحسس نظرته ، ويده ، باحترام وحنو جنبيه ، وظهره ، وخطه الغليظ .

إن ما يخرج من هناك ، ينبع ، يشع ، ينساب ينفذ إليهما يتسلل إلى داخلهما في كل مكان . إن ما يملأهما . يتضخم بهما . يرفعهما . . ويجعل حولهما نوعاً من الفراغ يطفوان فيه ، ويتركانه يحملهما .

ما من كلمة يمكن أن تصفه ولكنهما ليسا بحاجة إلى كلمات ، لا يريدانها يعرفان أنه يجب . قبل كل شيء ألا يتركا كلمة واحدة تقترب منه أو تمسه . يجب أن نحرص على أن تبقى الكلمات المنتقاة بعناية ، والمفروزة بدقة ، الكلمات الطيبة السليمة المهذبة ، أن تبقى بمبعدة حقاً ، عندكما هنا قطعة رائعة . . نعــم . . هناك ضربات الصدفة هذه . . هي ذات مرة فيما أذكر ، كنت في مهمة في كمبوديا ، وعند بائع تحف صغير . . لأول مرة ظننت . . ثمَّ بعد ذلك ، تصورت عندما أنظر إليها عن كثب . .

توقفت الضحكات الآن . كان لابد أن يذهبا للنوم ، في نهاية الأمر . ما كان من الممكن أن تمتد هذه الثرثرة طوال الليل . . في هذه الثرثرة كيف نتصور كل هذه التفاهة والعبث؟ ولكن قد انتهى الأمر . انفصلا ، حبس كل منهما نفسه في غرفته ، ولاذا بالصمت أخيراً . لم يعد شيء . . كما لو أن الهواء قد خف كل الخفة . حس من الخلاص ، من الحرية ، من اللامبالاة . . يمد يده بدوره ويضعها على الحجر الخشن . . للحجر . هذا صحيح . نوع من . . من الكثافة . . أنني سعيد لانك أيضاً . . هناك أناس يعتقدون أن . .

هاهو الأمر يبدأ من جديد . . بخفوت . . باندفاعات خفيفة . . هزات

وجيزة . .

وينفذ ذلك من خلال الباب المغلق . . وينسل . . أما الآخر من الأمام فهو مستمر مع ذلك في الكلام . . لعله لا يحس؟ أو لعله يسمعه كما يسمع المرء ، حقاً إنه يأخذ بحرص وحذر ، في أن يشق ثقباً؟ .

ولكن المرء هنا في حمى وأمان . ألا ينبغي أن يستعين المرء بأدوات قوية حقاً لكي يخترق ، لكي يشق الحيطان الكثيفة التي احتميا بها ، وبينهما هذا الموضوع هناك بينهما . . حيوان غريب أليس كذلك؟ تتبع يده خطوطه . وتداعب جنبيه الثقيلين . . أتساءل ما هذا . . لعله من نوع البوما . ومع ذلك لا ، إنه لا يشبه شيئاً . . انظر هذه الأقدام ، وهذه الآذان الهائلة على شكل القواقع المدببة الطرف . أقرب إلى حيوان أسطوري . . موضوع ديني . ما من أحد استطاع أن يشرح لي . .

ضحكات فضية ضحكات بللورية . . أكثر مما ينبغي قليلاً؟ أقرب إلى ضحكات المسرح؟ لا . . ربما لم يكن ذلك حقاً . . بلى . مع ذلك كان المرء يمكن أن يكتشف فيها . . ولكن لا . . هو ذا انفجار خفيف . . من تلك الانفجارات التي لا يمكن أن يوقفها أحد . . اوه . اسكت . . كفى . . سوف تجعلني أموت من الضحك . لم أعد أستطيع . . إنهم يسمعوننا . . ولكن أنظر إليه . هاها . . انظر . . إنه مضطرب حقاً ، مثير للنشوة . . يكفيهما أي شيء . . لا شيء . . أقل من لا شيء . . تفاهات . صبيانيات .

ما من شيء يمكن أن يمسنا ، نحن ، أو يهزنا نحن الأقوياء ، راسخي الأركان . ثابتي الجذور . نحن الذين دفع بنا وسط الحبوب العبقة ، وأواني زهور الجيرانيوم ونفاد الصبر ، والأباريق المنقوشة بالزهور ، وقماش الكريتون

الأبيض والخادمات العجائز الصادقات الولاء والطباخات بوجوههن اللامعة من الطيبة والجدات بقبعاتهن المنزلية المتخذة من الدانتللا ، يسقين الكتاكيت الوليدة حسوة من النبيذ .

ولكن لا . . ما من حاجة إلى الحبوب العبقة ، إلى الكتاكيت إلى المعدات ، فلنأخذ أي شخص ، فلنبحث على سطح الأرض كلها ، لن نجد شخصاً من بين أقل الناس حظاً من الـحـمى والأمان وأكثرهم عرضة للهجران والنبذ ، وأشدهم قلقاً ومضضاً ورعشة وأعظمهم ريبة وشكاً . . يستطيع أن . . يستطيع أو يريد؟ . . يستطيع أو يريد . .؟ ماذا يهم ، يستطيع أو يريد أن يدرك في هذه الضحكات . ولكن كيف يستطيع ذلك؟ من دون أن يكون مؤهلاً ومستعداً . . دون أن يكون مدرباً يستطيع أن . . عندما اقترب الصديق وعليه مخايل الثقة الهادئة ، من الموقدة ، ومد يده . . وتحسس هذا . . من كان يستطيع أن يدرك التهديد الخطر الزلزلة ، الفرار المضطرب ، النداءات ، التضرعات . . لا ليس ذلك . . لا تفعل ذلك . . لا تمسه . . ليس الآن ، ليس أمامهما ، طالما كانا هنا ليس تحت نظراتهما . . عندما تقدم . . كأنه السفينة الجبارة التي تحطم جبال الجليد في البحر تفتح كتلاً هائلة ، تشقها ، تشرخها تفكك كل شيء . . وعندما رفعه بحيطة وحرص ، ونقله ، ووضعه هناك في وسطهما وهما ينظران إليه دون أن يقولا شيئاً . . لم أستقر بهدوء ، على مبعدة . وتأمله ، وهو يمصمص شفتيه . . هذا الحيوان . . رائع حقاً . قطعة فائقة الجمال أين أتيح لكما حسن الحظ؟ . لا لست أنا . . كان عند أبي . . لا أعرف من أين كان أبي . . أنا كما تعرف لا أجمع التحف . . بل على العكس ، حتى . . كما لو أن ذلك كان يمكن أن يخدعهما ، كما لو كان ذلك الإنكار ، بما فيه من جبن تلك الخيانة التي

يرقبانها باستمتاع ، يمكن أن يحمل إليهما السلام ، يمكن أن تحول دون ما سوف يجري الآن محتوماً ، متوقعاً بكل تفاصيله ، كأنه تنفيذ حكم للإعدام يطبقه ، بدقة صارمة ، جلادون جفاة القلوب لا سبيل للندم إليهم ولا تمسهم صيحات المحكوم عليهم بالإعدام من قريب أو بعيد .

منذ تلك اللحظة ، كان كل شيء هناك ، متجمعاً في هذه الهنيهة من الوقت . . ولكن ما هذا . . كل شيء؟ لم يحدث شيء . . نهضا واستأذنا بأدب فقد كانا متعبين جداً . . والآن كما يحدث عادة ، بعد أن انفردا بنفسيهما دبت الحيوية فيهما من جديد ، وقد استرخيا . . وهما يستمتعان . . فقد كان يكفيهما أقل شيء . . أقل شيء من لا شيء . . ولكن ما هذا اللاشيء؟ لا يهم ، أية تفاهة . . لمحة أو إيماءة أو معابثة . . ما من أحد يعرف كيف يقلد قراراً ، مثل هذا البهلوان الصغير ، هذا المهرج الحقيقي الصغير ، إذ يضع لسانه تحت شفته العليا وهو لسان طويل ، ويصغر عينيه ، ويقوس ظهره ، ويده تحت إبطه وهو يهرش وفي كل مرة يجعلهما ذلك يموتان من الضحك . . أي شيء يكفي . . أليس كذلك؟ فلِمَ البحث عن المستحيل؟ إنهما مرحان . .

فرنـــانـــدو آرابـــــال

●

يكتب آرابال باللغة الفرنسية على أنه أسباني . وُلد ونشأ مع ولادة ونشأة الديكتاتورية العسكرية في اسبانيا على عهد فرانكو ، وقد اشتُهر بأعماله المَسرحية ومن أهمها «احتفـال لزنجي مقتول» و«كونسير في بيضة» و«جبانة السيارات» . وقد كتب الرواية والقصة في كُتُب مثل «احتفالات وطقوس الاضطراب» . ويدور عمله على أرضية كابوس القرن العشرين بما فيه من قمع بوليسي وما فيه من أهوال الحب وأمجاده وآثامه .

حساسيته ثرية ومنفلتة من قيود منطق عقلاني (هو أساساً منطق المجتمع الغربي المستقر في «عقلانيته» الخارجية على أسس من القهر الكولونيالي والفئوي) ، وهو إذ يشارف البراءة الخام الطفولية تقريباً في النظـر إلى العالم يُشفي أيضاً على نوع من الساديّة ، شاعريته عارية الأعصاب ونفاذة .



من حجر الجنـون

. .كنا نحن الاثنين في السينما ، وبدلاً من أن أنظر إلى الفيلم كنت أنظر إليها . كنت أتحسس غدائر شعرها وأمسح على رموش عينيها . ثمَّ كنت أقبل ركبتيها ، ووضعت على بطنها وعاءً صغيراً صنعته من تذاكر السينما . كانت تنظر إلى الفيلم وتضحك . وعندئذ كنت أداعب صدرها وفي كل مرة كنت أضغط على أحد نهديها كانت تخرج منه سمكة زرقاء .

***

كانت الشجرة تحتمي بالورقة ، والبيت يحتمي بالباب ، والمدينة تحتمي بالبيت . كنت أسير متأملاً هذا المشهد ، وكنت أرى أن الشجرة قد تحولت إلى ورقة ، والبيت إلى باب ، والمدينة إلى بيت . لذلك كان ينبغي عليّ أن أبذل جهداً حتى لا أخفي نفسي في يدي .

***

ضــربت العجوز على رأسه بالفأس ، فخرجت من الثقب ، عارية . جاءت إلى ناحيتي ، فأعطيتها ضفدعاً راحت ترضعه .

أقفـل العجوز جمجمته المشقوقة ، بيديه . ثـــم أخذت النيران تنبثق من قدميه . اقتربت ، وابتلعت النار . ودخلنا ، نحن الاثنين ، هي وأنا ، في بيت ،

ولكن سرعان ما أدركنا أنه كان بيضة كبيرة شفافة . تعانقنا ، ولما أردت أن أبتعد عنها ، أحسست أننا كنا نشكل جسداً واحداً برأسين .

نفخ العجوز على البيضة التي طارت وهي تحملنا ، نحن الاثنين . رجل يرتدي ملابس أسقف ، وفي يده سوط ، قال لي أن أدخل الكنيسة ، بدا لي أن الردهة تتكون من فخذي عملاقة راكعة .

في ركـــن ، أمامي ، كانت امرأة ترقص ، تحجبها الغلائل تماماً ، بحيث لم أكن أستطيع أن أتبين إلا قوامها . أردت أن أبحث عن الهيكل ولكنني كنت أنظر إلى المرأة ترقص . اقتربت مني وطلبت مني أن ألمس نهديها . كنت خائفاً أن يفاجئنا أحد ولكنني أطعتها . عندئذ خلعت إحدى غلائلها ، وتحت يديّ أحسست بدلاً من النهد ، برأس طفل وليد . أخذ يبكي ولكنني عندما انحنيت لأرفعه كان قد اختفى .

عندئذ عانقتني المرأة : كنت خائفاً أن يراني أحد . حاولت أن أتخلص منها ولكن دون جدوى . وفي تخبطي للتخلص منها انتزعت إحدى غلائلها ، ورأيت أن ذراعيها أغصان شجر ضخمة بلا أوراق ، وبدا لي وجهها شاحباً جداً وكله غضون وتجعدات . ضحكت وكشفت عن فـــم أدرد .

سمعت صوت الطفل يصرخ : «إنـــه هـــو» استبدرت ، ورأيت رأسه على يـــد الرجل الذي يرتدي ملابس الأسقف والذي كان ينظر إليّ بثبات . أردت أن أهرب ، ولكن أغصان المرأة كانت تسجنني كالكلابات .

أحياناً تنفصل يدي اليمنى عن ذراعي ، عند الرسغ ، وتمضي لتنضم إلى يدي اليسرى ، أضمها بقوة لأمنعها من السقوط لأنه يمكن أن أفقدها . يجب

عليّ ، دائماً ، أن أصغي إليها بالانتباه ، حتى أتجنب ، في لحظة من لحظات الشروط ، عندما أعيدها ثانية في مكانها ، أتجنب أن أضعها بالعكس ، راحتها إلى الخارج .

وضعت فرع بوصلة على بطنها ، ورسمت عدة دوائر مشتركة المركز تمر أحياناً بركبتيها ، وأحياناً بصرّتها ، أو تمر بقلبها أيضاً . ولكي لا أنسى وجهها تصورته مليئاً بالأرقام ، ثمَّ أخذ المطر يسقط ، وصعدت ، واقفة ، عارية ، على حصـان .

كنـت أمسك باللجام ، سقطت أسماك من السماء وكانت تمـر ، ضاحكة ، من بين ساقيهـا .

كـلـود ـ أنطـوان كيشيونـي

•

بدأ كلود ـ أنطوان كيشيوني حياته الأدبية بروايته التي نشرها وعمره خمسة وعشرون عاماً من العمر ، بعنوان «أسوننا يتكلم» ، وقال عنها جـان كوكتو «إنها روح الكاتب التي تعـدل عنده هذا الشكل الجميل غير المألوف والموجع الذي نجده أمامنا كتاباً على مائدتنا» . وبعدَ أن قضى عامين في مصحة ، نشر كتاباً آخر بعنوان «ترجمة عن الخليع» اعتُبر ، وقتها ، بمثابة رقصة «الروك آند رول» الأدبية . كان كيشيوني قد ولد في مارسيليا ، لكنه اعتاد أن يقضي فترات طويلةً في منطقة المناجم في بروفنس ، حيث تدور قصته «مـن قَبْـل» التي تبدو لنا واقعيّة صارمة الدقة لكنها توحي بجـو يتجاوز «الواقـع» إلى مناخات من الإيهام والالتباس .

مـِن قَبـل

. .كانا يعيشان ، كلاهما من غير امرأة ، في بيت مشارف آخر القرية ، حيث لا تقوم منازل إلا على جانب واحد من الشارع ، وحيث يبدأ الطريق العام . وكان ذلك أشبه بهما ، أن يعيشا هناك .

كانت العجوز التي تسكن فوقهما تسمعهما يتكلمان في الليل ، ولم تكن تفهم أن يتكلم المرء ، على هذا النحو ، إلى طفل . أما الصغير فلم يكن يكد يفتح فمه أبداً ، ولعله لم يكن يصغي إلى ما يقال إليه .

كان الأب يعمل في المنجم ، كان يعود بالليل إلى القرية ، وكان يبدو بمظهر شيطاني ، برغم ما يلوح عليه من إرهاق . كان «البوكسيت» يعطي هؤلاء الرجال الذين يهبطون من سيارات النقل ، في غير تعجل ، وتنفجر أصواتهم الجافة المكتومة ، لوناً بنياً محروقاً . كانت قذارة الأرض هذه تتسلل إلى كل موضع من أجسامهم ، حتى ملابسهم الداخلية كانت حمراء .

وفي الصيف ، حتى نهاية أكتوبر ، كان يستحم في طست خشبي ضخم مرتفع الجوانب في العراء ، خلف البيت عارياً . وكان ابنه الذي يسخن له الماء عند عودته من المدرسة يرقى كرسياً قديماً ويصب له الماء من الإبريق ، من فوق ، يزيل الصابون من عليه . وفي الشتاء كان يستحم في المطبخ ، في طست نحاسي كبير بالقرب من موقده الحديد الزهر الذي كان ينضج طعامهما ، وكان

ذلك يُغرق البلاط الأحمر القديم .

ثم كان يتمدد بعد ذلك عارياً على سريره على ظهره ، يداه وراء عنقه ، ويلتزم الصمت ، في الظلام أحياناً حتى ينادوا الولد ، عندما تعد المائدة وتحين ساعة الأكل ، ولكن الصغير كان يعرف أنه لم يكن ينام ، إنه كان يرقبه من الباب المفتوح ، إن لم يكن يفوته شيء كما يفعله . كان وجهه عندما يدخل إليه ليأتي بشيء ما من القرفة ويمر بجانبه ، لا ينمُّ عن إحساس ما ، كانت نظرته غامضة وتتبع الطفل بحركة آلية ، كانت عيناه سوداوين وينعكس عليهما شيء من النور الذي يأتي من المطبخ .

كانا يأخذان أحياناً في الحديث عن المدرسة ، وكيف كانت على أيامه ، وكان يقول إنه لم يكن يفهم ، عندما كان صغيراً . لماذا يزعمونه وينقلون عليه بكل تلك الحكايات ، والبقاء جالساً على مقعد خلال ساعات طويلة ، والإصغاء إلى المدرس ، أو التظاهر بالإصغاء والقراءة بصوت مرتفع ، ذلك كله يزعجه وينقل عليه ، وكان عليه أن يتابع الكلام بأصبعه على الكتاب ، وفي المساء ، عندما يعود كان هناك دائماً عملٌ في البيت ، كان أبوه يعود متأخراً من عمله وكان لا بد من قطع الأخشاب للأم أو من عمل شيء آخر ، وكان هو الولد الوحيد ، ولكنه كان أحياناً يهرب لكي يذهب يتسكع .

وأحياناً كان يسأل : «ماذا تلعبون الآن؟» . ولكن صوته كان مرهقاً منهوكاً لم يكن فيه أدنى تطلع للجواب ولم يكن الابن يجيب بشيء .

وعندئذ كان الأب يترك الصمت يسود لحظة ، ثمَّ يعود فيقول :

كنا نلعب أحياناً لعبة بِلي . كان اسمها لعبة «الكابي» ويعود ليهبط

الصمت . كان الابن يواصل حفظ درسه أو يعمل شيئاً ما في المطبخ .

ـ «الكابـي» معناها العاصمة ، كنا نحفر ثقوباً في الأرض . في فناء المدرسة .

وكان يصمت بعد ذلك . ثمَّ بعد لحظة فيقول :

ـ كنا نرمي بالبلى ، وكان لابد من الوصول إلى الحفرة .

ثم يتوقف من جديد .

ـ لم أكن قوياً جداً في اللعبة . كانت لعبة معقدة .

وهنا أيضاً يتوقف . لم تكن تلك وقفة ، بل كان صمتاً حقيقياً ، دون انتظار ، دون شيء ما ، ثمَّ يعود الصوت فجأة دون أن يمهد له شيء .

ـ وفي الربيع كنا نلعب بنَوَى المشمش . لم أعد أذكر ماذا كنا نسمي اللعبة كان لها اسم . هذا لا يصدَّق ، لم أعد أذكره .

ويتوقف مرة أخرى .

ـ كنا نسرق المشمش من البساتين . كان ذلك قبل هنا ، على شاطىء النهر . ومن جديد يعود فيهبط الصمت .

ـ كان ذلك مثل هنا ، تماماً . كان النهر مثل الوادي «والوادي» يشبه هنا . . رأيت منها الكثير . في الجزائر ، أثناء خدمتي في الجيش . وهناك أنهار أيضاً في الشمال .

كان الأمر يجري على هذا النحو . الصمت حيناً ، ثمَّ جملة أو جملتان ، ثمَّ لحظة من الصمت بعد ذلك ، وكان صوته أحياناً لا يعود فيرتفع حتى ساعة

الطعام .

وأحياناً أخرى كان يواصل حديثه . كان يحكي ، إنه كان يعبر النهر ، هو وزملاؤه وإنه لم تكد تكون في النهر مياه ، وكانت فيه نباتات العوسج ، وأعواد الخوص والقربص التي كانت تعوقهم وكان المشمش مازال نيئاً أخضر ، ولكنهم كانوا يكفون أنفسهم به حتى يحصلوا على أكثر ما يمكن من النوى .

ــ وليس صحيحاً أنه يوجع البطن عندما لا يكون ناضجاً .

وكان يعود أحياناً للكلام بعد العشاء ، بينما كان الصغير يرتب الأشياء ويسويها ، بل بعد ذلك أحياناً ، عندما يأويان للفراش ، كلاهما في الظلام وكان ينام في أثناء إحدى فترات صحته .

***

لم يكن أحد يعرف من أين كانا قد جاءا ، مع ذلك فقد انقضت سنتان وهما هناك . كانا قد وصلا وحدهما ، أما الأم فلم يكن أحد قد سمع عنها شيئاً .

كانت العجوز الساكنة فوق تقول إنها لم تكن ميتة بالتأكيد ـ لا بدَّ أنها قد تركتهما .

امرأة لا خير فيها . وتهجر رجلاً ، وصغيرها .

وهو لا يتكلم عنها قط ، عن المرأة . يتكلم عن طفولته . عن المدرسة . عن اللعب عندما كان صغيراً . عن الحماقات التي كان يفعلها . عن أشياء لا أهمية لها . عن أشياء لا تعني شيئاً ،

ولا عن بلدهم ، لا يتكلم عنها قط . ولا عن بيتهم ، هناك .

لو كانت قد ماتت ، لتكلم عنها ، تلك المرأة ، فذلك شأن الرجال .

***

كان الصغير في العاشرة من عمره . كان يأكل ظهراً في الكانتين ، وفي المساء بعد الدراسة ، كان يذهب لشراء ما يحتاجان إليه قبل أن يعود للبيت . وفي مرة في شهر نوفمبر ، كان الجـو بارداً وفيه رطوبة ، وعندما كان يدفع باب الفرن ليدخل ، لاحظ أن اللافتة المكتوب عليها « مثلجات» لم تكن قد أزيلت بعد .

لم يكن في وجهه كثير تعبير ، لم يكن أحد يعرف أبداً فيمَ كان يفكر . لم يكن يساوم أو يناقش أبداً مع أصحاب المحلات الذين كانوا يحبون حقاً أن يأخذوا معه في أطراف الحديث ، وخاصة النساء منهم ، لكي يعرفوا شيئاً عنهما . وكان الناس أميل إلى الرثاء له ، هذا الصغير المسكين كانوا يبتسمون له في دماثة . ويحدثونه عن الجو ، عن المدرس ، لكنه لم يكن يجيب إلا بنعم أو لا : لا أعرف ، هذا كل شيء كان مؤدباً وخشناً جافياً ، قليلاً ، كانوا يعتقدون أنه ماكـر .

أما في المدرسة فقد كان الأمر يختلف كان يتصرف مثل الأولاد الآخرين . كان يلعب مع الأولاد من فصله ، ولم يكن أقل حيلة أو أكثر براعة وحذقاً من معظم زملائه . كان جزءاً من هذا الجمهور من الأولاد الذي يتقاسم الزعماء دون حماس بعد أن يتنازعوا أفضل ما فيه .

وفي البداية كان الأولاد في فصله قد سألوه عن الألعاب التي كانوا يلعبونها هناك حيث كان يعيش من قبل ، وكان قد أجاب أنها نفس الألعاب ولكنه كان

أصغر سناً ، كان يلعب ألعاب الصغار ، وقال إن ذلك كان بعيداً ، في الجنوب أيضاً ولكن من ناحية أخرى بالقرب من البحر وكان كل شيء مسطحاً وكانت هناك برك يأخذه أبوه إليها للصيد ، يوم الأحد في قارب .

ــ لا . نعم . لا أعرف ــ ربما .

- كان القارب ملكه هو؟

كانـــا يوغلان في الماء دون أن يأتيا بصوت ، لا صوت يند عن شيء ما في الماء ، وكانا أحياناً يقطعان قناة صغيرة بين أعواد الخوص في الماء ، كانت أعواد الخوص تحيط بهما من كل جانب .

ــ لم تكونا تختبئان أحياناً في وسط الخوص ، كما يحدث في السينما ، رأيت ذلك مرة في السينما .

ــ ولماذا تختبيء؟ .

ــ لعبـــة .

ــ لعبة المطاردة .

ــ لعبـــة؟ .

ــ نعـــم .

ــ نعم ، لعبـــة .

ــ ليس مع أبي . لم نكن نلعب .

ــ لـمـــاذا؟ .

ــ كان يصطاد .

ــ وأنـــت؟ .

ــ أنا ، لا شيء .

ـ ماذا كنت تفعل أثناء ذلك؟ .

ـ لا شيء .

ـ لم تكن تفعل شيئاً؟ .

ـ فيمَ كنت تفكر؟ .

ـ لم أكن أفكر في شيء .

ـ صحيح ، لم تكن تفكر في شي؟ .

ـ كنت أنظر إليه وهو يصطاد .

ـ كنتما تخرجان مبكراً في الصباح؟ .

ـ نعـم .

ـ كان ذلك يستغرق وقتاً طويلاً؟ .

ـ كان ذلك يستغرق طول النهار؟ .

ـ حسب الظروف .

ـ حسب أي ظروف؟ .

- كنا نعود عندما يصطاد الكفاية من السمك ، أحياناً كنا نرجع قبل الظهر .

ـ وماذا تفعلان؟ .

ـ لا شيء . نأكل .

ـ كانت معكما امرأة؟ .

ـ لا . كنا وحدنا .

ـ دائماً؟ .

ـ دائماً ماذا؟ .

ـ دائماً أنتما وحدكما؟ .

ـ نعم ، كنا دائماً وحدنا .

ـ لم تكن هناك أمك ، معكما؟ .

ـ لا .

ـ أين هي أمك؟ .

ـ هل ماتت؟ .

ـ لا أعــرف .

ـ ألـم تـرهـا أبداً؟ .

ـ نعــم ، كنت صغيراً جداً .

ـ هل تتذكرها؟ .

ـ أتذكرها قليلاً . كان هذا من وقت طويل .

ـ وبعد ذلك؟ .

ـ ماذا حدث لها؟ .

ـ لا أعرف .

ـ لا تعرف ماذا حدث لأمك؟ .

ـ لا .

ـ وبعد ذلك ، أبوك ، لم تكن له امرأة؟ .

ـ عندنا في البيت؟ .

ـ نعــم .

ـ لا ، ليس عندنا في البيت . لم تكن هناك امرأة بعد ذلك .

ـ إذن لم تكن له امرأة ، بعد ذلك ، أبوك؟ .

ـ أوه لا أعرف ما يدريني أنا؟ .

ـــ لم تكن له امرأة؟ .

ـــ آهـــا . . هـــا؟ .

ـــ في بعض الأحيان ، يوم الأحد بعد الظهر كان يتركني وحدي .

ـــ آه . . هـــا .

ـــ هل تعرف أين كان يذهب؟ .

ـــ في المدرسة كان الكبار يقولون إنه يذهب إلى امرأة تسكن بالقرب من البركة .

ـــ لم يكن يأخذك معه أبداً؟ .

ـــ آه . . هـــا .

ـــ لا .

ـــ لم يكن يجرؤ .

ـــ هل تعرف ماذا كان يفعل هناك؟ .

ـــ آه . . هـــا .

ـــ كان يفعل ذلك معها .

ـــ هل تعرف ما ذلك ، أنت؟ .

ـــ لم يكن من الصعب فهم ذلك .

ـــ هل كنت تعرفها؟ .

ـــ كنت أراها أحياناً تمر في الشارع لم أكن أعرفها .

ـــ وسافرتم من هناك لأنها لم تعد تريد أباك؟ .

ـــ آه . . هـــا .

ـ لا ، ليس هذا السبب .

ــ وما السبب؟ .

ــ ما السبب إذن؟ .

ــ لم يكن هناك عمل ، وبحث أبي عن عمل ثمَّ قال إنه هناك يمكن أن يذهب للنجم وجئنا هنا .

ــ ماذا كان يفعل؟ .

ــ كان يعمل في المدينة ، على رصيف الميناء . كان يذهب إلى هناك بالدراجة .

ــ كان ذلك بعيداً؟ .

ــ لم يكن بعيداً . كان يذهب هناك بالدراجة .

ــ هل ذهبت هناك أنت؟ .

ــ نعــم . ذهبت هناك .

ــ كثيراً؟ .

ــ أحياناً ، يوم الأحد بعد الظهر .

ــ كان عندك عجلة؟ .

ــ نعــم .

ــ كيف كان شكلها؟ .

ــ هل كانت عجلة سباق؟ .

ــ من أي ماركة؟ .

ــ لا . عجلة عادية ، بيجو .

ــ من أي لون؟ .

ــ كانت حمراء .

ــ وكيف كان شكل تلك المدينة؟ .

ــ مثل دراجتينا؟ .

ــ مثل طولون؟ .

ــ كانت كبيرة؟ .

ــ حاسب ، لاتدفعني هكذا . نعــم كانت كبيرة .

ــ كيف كانت كبيرة؟ .

ــ يقول أبي إن هناك مدناً أكبر منها بكثير ، كان هناك ميناء ولكنه لم يكن يشبه البحر ، كان أشبه بنهر . . كانت قنالاً بين البحر وبين بركة كبيرة .

ــ هل أخذك معه إلى السينما؟ .

ــ ماذا فعلتم بالدراجات؟ .

ــ لا تدفعوني هكذا . تركنا الدراجات على الرصيف في الميناء حيث كان يعمل .

ــ هل أخذك معه لتشاهد السينما؟ .

ــ فيلم فيه نساء؟ .

ــ نساء عاريات؟ .

ـ لاتدفعني . لا ، كنا نتمشى ، نحن الاثنين .

ــ في المدينة كلها؟ .

ــ على أرصفة الميناء ، في كل مكان تقريباً ، كان حزيناً .

كانوا يستجوبونه على هذا النحو ، عدة مرات ، كانوا يسألونه على الأخص ، عن المدينة ، عن الميناء ، وإن كان هناك دائماً من يقول إن ذلك ليس ممتعاً ، هذه الحكايات ، وإن الفسحة ستنتهي دون أن يفعلوا شيئاً .

***

وفي يــوم ، أخذ الكبار يستجوبونه . حاصروه ووضعوه في مأزق ، كما كانوا يقولون في هذا اليوم لم يكن أحد يريد أن يلعب .

جاءوا بينما كان يحكي ذلك كله لزملائه وراحوا يستمعون إليه لحظة ثمَّ تدخل أحدهم .

ــ ليس هذا صحيحاً ، لم تكن هناك امرأة يفعل معها ذلك ، هناك .

ــ لماذا تقول ذلك؟ .

ــ هكــذا .

ــ لم تكن معنا هناك لكي تعرف .

ــ أنت لا تعرف حتى ما معنى ذلك ، أنت صغير جداً ، أليس كذلك؟ .

ــ نعــم ، أعــرف .

ــ لا ، أنت لا تعرف . أنت صغير جداً .

ــ أوه ، يقول إنه يعرف ما معنى ذلك ، عندما يذهب رجل مع امرأة .

ــ أعرفه كما تعرفه أنت ، وأحسن .

ــ هل تريد أن تعلمني؟ أوه ـ اسمعوا يا أولاد .

ــ نعــم ، أعــرف .

ــ هــــوه هــــوه .

ــ طيب طيب . لماذا لم تكن هناك امرأة مع أبي؟ .

ــ ولماذا لا تكون له امرأة هنا؟ .

ــ ولماذا لا تكون له امرأة هنا؟ .

ــ لا أعــرف .

ــ هــا أنت ترى أنك لا تعرف .

ــ آه هــــا .

ــ لا تدفعوا هكذا .

ــ نعـــم ، لماذا ليست له امرأة هنا ، أبـوك؟ .

ــ لا تدفعني . ربما كانت هناك امرأة من يدريك؟ .

ــ لا ، ليست له امرأة .

ــ وماذا يدريك؟ .

ــ أوه . . يسأل ماذا يدريني .

ــ كل الناس تعرف .

ــ إنه ليس رجلاً ، أبوك .

ــ نعـــم ، إنه رجل ، أبي .

ــ لا ، ليس رجلاً حقيقياً .

ــ لا تدفعني هكذا . أبي ، رجل ،

ــ وأقول لك لا . هـــه ، سوف تبكي ، أليس كذلك؟ .

ــ آه هـــا .

ــ هـــو . . هـــو .

ــ نقول لك لا .

ــ ليس هذا صحيحاً .

ــ لن تبكي مثل البنات؟ .

ــ النساء لا يرين شيئاً من أبيك .

ــ هذا برهان لا يرد .

ــ ليس هذا صحيحاً . لا تدفعني أقول لك ، ليس هذا صحيحاً .

ــ بل هو صحيح .

ــ لا يرين منه شيئاً .

ــ أنتم كذابون .

ــ اسمعوا : بنت حقا . . أوه . . هذه بنت .

ــ لست بنتاً أنا . ولا تدفعوني قلت لكم .

ـ لو لم تكن بنتاً لفهمت من زمن طويل أن أباك ليس رجلاً .

ــ ونحن نقول لك : النساء لا يرين منه شيئاً .

ــ أبوه . لا يبحث عن النساء حتى .

ــ ليس رجلاً نقول لك .

ــ لا يبحث حتى .

ــ هذا لا يهمه حتى ، أبوه . النساء لا يهتم بهن . آه آه .

ــ آه هـــا .

ــ اسكتوا يا كذابين .

ــ كذابين؟ قل لي هل تريد أن تأخذ علقة؟ .

ــ كذابين ، كذابين .

ــ آه هـــا .

ــ أقول لك إن أباك لا يهتم بالنساء . لا تثير النساء عنده شيئاً .

ــ أحسن ، لأنه لا توجد امرأة تريد منه شيئاً .

ــ نعـــم ، لا يرون منه شيئاً .

ــ نعـــم . ليس رجلاً .

ــ قل إنه ليس رجلاً . قل ذلك لو كنت شجاعاً .

ــ آه هــــا .

ــ هيــه . . أنت لا تريد أن تضربه؟ .

ــ لا تدفع يا صغيري . لا تدفع ، حاسب .

ــ سوف يؤذيك يا صغيري اتركه وشأنه .

ــ كذاب ، كذاب .

ــ ألا ترى أنني سوف أسحقك سحقاً؟ .

ــ حاسب يا بني ، اتركه .

ــ قل ورائي ، قل ورائي : أبوك ليس رجلاً ، وإلا فسوف ترى .

ــ اسمعوا : آه . حاسب يا بني ، على مهلك وإلا فسوف تأخذ درساً ، أقول لك :

ــ قــف يا بني . . وأنت أيضاً قف . تتظاهر لأنك أقوى منه . . اذهــب .

هل تريد أن أعطيك أنا درساً؟ وأنت ، أبوك قل لي ، هل هو رجل؟ ألم تكن له قرون قط؟ . اسأل أمك عما إذا كان رجلاً اسألها .

وقامت معركة صغيرة وعوقبوا جميعاً ، ولكن الكبار كانوا شيئاً فوق ذلك . من حين إلى حين ، ويجري الأمر دائماً بنفس الطريقة .

لم يكن يبكي قط . ولم يكن أبوه أيضاً يبكي قط ، على سريره ، في المساء ، عندما كان يروي ذكرياته عما حدث من قبل ، ذكريات لم يكن عليه أن يتكلم فيها عن امرأة ، عن أم الصغير أو عن الأخرى تلك التي كانت تسكن بيتاً على الجانب الآخر من القرية هناك بالقرب من البركة .

لم يكن الأب يتكلم إلا عن طفولته . كان أحياناً يشير إلى شيء آخر . إلى أشياء رآها أثناء خدمته في الجيش ، أو في فترة أخرى من حياته . ولكن ذلك لم

يتجاوز هذا الحد بل كان يقولها لكي يحسن التعبير عما يروي من أشياء حدثت بينما كان يذهب للمدرسة .

***

وفـي ليلة استيقظت العجوز التي تسكن فوقهما وهي تسمعهما يمشيان . كانت أصداء خطواتهما تتردد في البيت . لم تكن قد سمعت ماذا كانا يقولان من قبل . خبطت عدة مرات على السقف بالمكنسة ، ولكنهما لم ينقطعا .

وفي نحـو الساعة الخامسة كانا يخرجان . كانا يهبطان على السلالم ببطء بالغ ، كما يفعل الذين يحملون حقيبة ضخمة ، وصدر عن باب المدخل صرير ، وقرقع الحصى على رصيف الشارع تحت أحذيتهما .

والمحطة على مسافة ثلاثة كيلومترات ، وإن كان لديهما الوقت المتاح لكي يلحقا بقطار الصباح ، فهو يمر الساعة السابعة . وهو قطار ركاب يذهب لغاية طولون .

صموئيل بيكيت

●

أذيعت «شذرات من عمل لم يتم» لأول مرة في البرنامج الثالث (الثقافي) للإذاعة البريطانية في ١٤ ديسمبر ١٩٥٧ ، ونُشرت بعدها بسنة واحدة من دار نشر ماكميلان . ذلك أن بيكيت كتب الرواية ، والرواية ـ القصيدة ، والمسرحية والقصيدة الخالصة ، والقصة القصيرة ، والسيناريو ، والدراما للإذاعة والتليفزيون ، على السواء من الأستاذية والتمكُّن والحس البصير ، كما كتب دراسةً نقدية عن بروست . هــل نحتاج أن نقول إنه ولد في دبلن ١٩٠٦ وإنه في سنيّه العشرين رحل إلى باريس حيث عاش بقية حياته يكتب بالإنجليزية والفرنسية سيّداً لكل من اللغتين يترجم لنفسه من إحداها للأخرى ، وإنه عندما مُنح جائزة نوبل الشهيرة في ١٩٦٨ قيل عنه في خطاب الأكاديمية السويدية : «في مملكة العدم هذه التي نحيا فيها ترتفع كتابة صموئيل بيكيت كأنها صرخة استرحام للإنسانية جمعاء ، نغمها الخافت ، في مقامها الثانوي الصغير ، يُؤْذن بالتحرر للمقهورين وبالراحة لمن هم في قبضة العَوَز والحاجة» .

كتابته لا تحتاج إلى تعريف ، قسوة التزهّد وصرامة الاقتصار على ما هو جوهريّ ، في الكلمة أو في ما تحمل الكلمة من طاقة ، بما يكاد يُشفي به على أن تكون الكلمة معادلاً للصمت نفسه ، بما يكاد يقول ـ باللغة ـ إن اللغة لا يمكن أن تفي بما هو من شأنه أنه لا يُنْقَال . كتابةٌ جهم لكن لا تعوزها دعابة سوداء ونفّاذة ، أناقةٌ نحيلة ممشوقة معرّاة عن كل فضول .

شذرات من عمل لم يتم

نهضت مشرقاً ومبكراً في ذلك اليوم . كنت صغيراً عندئذ ، وأحس بالرهبة ، وخرجت أمي تطل من النافذة في قميص النوم تبكي وتلوح . صباح منعش وجميل ، مشرق ومبكر أكثر مما ينتظر ، كما يحدث كثيراً . أحس بالرهبة حقاً ، وبالعنف جداً . سرعان ما سوف تظلم السماء ويسقط المطر ، ويظل يسقط طوال النهار حتى المساء ، ثمَّ تعود زرقاء ، والشمس ، مرة أخرى لحظة من الزمن ، ثمَّ الليل . كنت أحس ذلك كله ، ومدى العنف الذي فيه ، وهذا النوع من الأيام ، فوقفت واستدرت . وهكذا عدت برأس محنيّ ، أبحث عن موقع ، أو حلزون أو دودة وحب كبير في قلبي أيضاً لكل الأشياء الساكنة الضارية بجذورها في الأرض . الشجيرات ، وكتل الصخر ، وما يشبهها ، أكثر عدداً من أن تذكر ، بل وزهرات الحقل أيضاً . ما من شيء في العالم يدعوني وأنا مستجمع شتات نفسي أن أمس واحدة منها لكي أقطفها . إما عن طائر ، مثلاً ، أو فراشة ترفرف هنا وهناك ، وتعترض طريقي ، إما عن قوقع ، مثلاً ، يعترض قدمي ، فلا ، لا رحمة . لا يعني ذلك الذي قد أخرج عن طريقي لأنالها . . لا ، إنها على البعد تبدو ساكنة غالباً ، وبعد لحظة تنقض على . . الطيور ببصري الثاقب كنت أراها تطير ، عالية جداً ، بعيدة جداً ، حتى لتبدو بلا حراك ، وفي اللحظة التالية ، في كل مكان حولي ، الغربان

كانت تفعل ذلك . ولعل البط أسوأها ، أن يتخبط المرء فجأة ويتعثر وسط البط أو الدجاج ، أو أي نوع من الدواجن ، ليس هناك أسوأ من ذلك إلا القليل . ولكنني لن أخرج عن طريقي لأتجنب مثل هذه الأشياء ، إذا كان من الممكن تجنبها . . لا ، لن أخرج أبداً عن طريقي ، ولو أنني لم أكن قط في حياتي أتخذ طريقي في مكان ما ، بل كنت ببساطة أسير في طريقي . وبهذه الطريقة مضيت عبر أحراش عظيمة ، أدمي وأغوص عميقاً في ردغة المستنقعات ، والماء أيضاً ، بل البحر في بعض حالات الطبع ، وحملت بعيداً عن سبيلي ، أو دفع بي إلى الوراء حتى لا أغرق . ولعلني على هذا النحو سوف أموت خيراً إذا لم يلحقوا بي ، أعني غريقاً أو في النار ، نعـم ، لعلني على هذا النحو سوف أفعلها محترقاً حتى الهشيم . ثمَّ رفعت عيني ورأيت أمي ماتزال في النافذة تلوح ، تلوح تدعوني للعودة إلى الوراء أو للمضي إلى الأمام ، لا أدري ، أو تلوح فقط في حـب حزين لا يملك من أمره شيئاً ، وسمعت صيحاتها بخفوت . كان إطار النافذة أخضر ، شاحباً ، وحائط البيت رمادياً ، وأمي بيضاء ونحيلة حتى كنت أستطيع أن أرى عبرها (كان لي بصر ثاقب عندئذ) ظلمة الغرفة ، بإزاء تلك الشمس المليئة لم تكد تشرق من زمن طويل ، جميل جداً في الحقيقة كل ذلك ، أتذكره ، اللون الرمادي القديم ، ثمَّ الإطار الأخضر الرقيق والأبيض الرقيق النحيل بإزاء الظلام ، لو أنها وقفت ساكنة وتركتني أنظر . . لا ، في المرة التي كنت أريد فيها أن أقف وأن أنظر إلى شيء ما ، لم أستطع وهي هناك تلوح وترفرف وتتطوح داخل النافذة وخارجها كما لو كانت تقوم بتمرينات ، ولعلها كانت تقوم بتمرينات ، فما يدريني ، ولم تكن تهتم بي على الإطلاق . لـم تكن تستمسك بما تسعى إليه وتصـر عليه ، ذلك شيء آخر لم يكن يروق لي منها .

التمرينات أسبوعاً ، ثمَّ الصلوات وقراءة الإنجيل في الأسبوع التالي ، ثمَّ فلاحة البساتين في الأسبوع الذي يليه ، والعزف على البيانو والغناء في الأسبوع الذي بعد ذلك . كان ذلك فظيعاً ، ثمَّ تنام بعد ذلك ، وتستريح ، دائماً تتغير . على أن ذلك ما كان يهمني في شيء ، فقد كنت دائماً في خارج البيت . ولكن دعني الآن أكمل ما كنت بسبيله عن ذلك اليوم الذي وقعت عليه لكي أبدأ به ، وإن كان أي يوم آخر قد يفي بالغرض ، فلنمض مع ذلك اليوم ، ولنخرج عن طريقي ، ولنمضِ إلى يوم آخر ، يكفي الآن ما قلنا عن أمي . وإذن فقد مضى كل شيء بخير لفترة من الوقت . ما من متاعب ، وما من طيور تنقض عليّ ، وما من شيء في طريقي إلا جواد أبيض على مسافة شاسعة البعد ، يتبعه ولد ، أو لعله كان رجلاً ضئيل الحجم أو امرأة ضامرة القوام .

ذلك هو الجواد الأبيض الوحيد كامل البياض الذي أتذكر أنني رأيته قط ، ما يسميه الألمان فيما أعتقد «شيميل» . كنت في صباي سريع الحافظة ، وتلقنت طائفة كبيرة من المعلومات الصعبة Schimmel كلمة ظريفة عند من يتحدث الإنجليزية . كانت الشمس تنصبُّ عليه بملئها ، كما كانت تنصبُّ منذ قليل على أمي ، وكان يبدو أن شريطاً أو خطاً أصهب نازلاً على جنبه ، ودار بذهني أنه ربما كان حزاماً حول بطنه ، وربما كان الجواد ذاهباً إلى مكان ما يلجم ويوثق فيه بعربة أو ما يشبهها . لقد عبر طريقي على بعد شاسع ، ثمَّ اختفى وراء الخضرة فيما افترض . كل ما رأيت هو ظهور الجواد فجأة ، ثمَّ اختفاءه . كان أبيض مشرقاً ، والشمس عليه ، لم أكن قد رأيت قط مثل هذا الجواد ، وإن كنت قد سمعت به ، ولم أر قط جواداً آخر يشبهه . ولابد أن أقول : إن الأبيض كان يؤتي عندي أثراً قوياً ، كل الأشياء البيض : الملاءات ، والحيطان ، وهكذا ،

حتى الأزهار ، بل مجرد الأبيض ، فكرة البياض لا أكثر . ولكن دعني أكمل ما كنت بسبيله عن ذلك اليوم وأخلص منه . وإذن فقد مضى كل شيء بخير لفترة من الوقت ، لا شيء إلا العنف ثمَّ هذا الجواد الأبيض ، عندما استبدت بي فجأة ثورة وحشية عارمة من الغضب ، ثورة تعمي البصر حقاً . فلماذا هذه الغضبة المفاجئة ، لا أدري حقاً لماذا هذه الغضبات المفاجئة؟ . لقد أحالت حياتي إلى شقاء مقيم . أشياء كثيرة أخرى أشقتني أيضاً : التهاب الحلق مثلاً ، لم أعرف قط ما معنى أن يكون للمرء حلق ملتهب ، ولكن الغضبات كانت أسوأ شيء ، كريح عاصفة تهب في فجأة . لا ، لا أستطيع أن أصف . لم يكن ذلك على أي حال هو العنف يزداد سوءاً ، لا شأن لذلك به من قريب أو بعيد . في بعض الأيام كنت أحس نفسي عنيفاً طوال اليوم ولا تعتريني غضبة ما ، وأيام أخرى هادئة تماماً فيها أحس وتعتريني أربع غضبات أو خمس . لا ، ما من تفسير لذلك ، ما من تفسير لشيء عندما يكون للمرء ذهن كالذي كان دائماً لي ، دائماً يقظ متربص بالحياة ، لعلني أعود إلى ذلك عندما أحس أقل وهنا مما أنا الآن . وقد مرت بي أحيان كنت أحاول أن أتخفف مما بي بأن أخبط رأسي بشيء ما ، ولكنني أقلعت عن ذلك . كان أفضل ما وقعت عليه أن أروح أجري . ربما كان من الخير أن أذكر هنا أنني كنت بطيء السير جداً . لم أكن أتسكع أو أتلكأ بأي شكل ، بل كنت أسير ببطء جداً ، هذا كل شيء ، خطوات صغيرة قصيرة والقدمان بطيئتان جداً في الهواء . ومن ناحية أخرى فلابد أنني كنت من أسرع العدائين الذين شهدهم العالم ، لمسافة قصيرة ، خمس أو عشر ياردات ، في ثانية واحدة كنت هناك . لكنني لم أكن أستطيع أن أمضي بتلك السرعة ، لا لانقطاع النفس ، بل كان ذلك عقلياً ، كل شيء عقلي أضغاث أوهام . أما

السير السـريع مثلاً فلم أكن بقادر عليه إلا قدرتي على الطيران . لا ، كان كل شيء عندي بطيئاً ، ثمَّ هذه الومضات ، أو الانبثاقات ، تفثأ الغلة ، كان ذلك من الأشياء التي اعتدت أن أرددها ، مراراً وتكراراً ، بينما أنا في طريقي ، تفثأ الغلة . ولحسن الحظ مات أبي وأنا بعد صبي صغير ، وإلا لأصبحت أستاذاً في الجامعة ، كان قد وضع ذلك نصب عينيه وكنت قادراً على الدرس والبحث أيضاً ، قدرة لابأس بها ، لا تفكير ، وإنما على حافظة عظيمة . حدثته يوماً عن النظام الكوني عند ميلتون ، بعيداً عالياً في الجبل كنا يومها ، نستريح على صخرة هائلة منيفة على البحر ، وترك ذلك عنده أثراً قوياً . الحـب أيضاً ، كان غالباً في تفكيري ، عندما كنت صبياً ، وإن لم يشغل حيزاً كبيراً بالمقارنة بغيري من الصبيان ، ووجدت أنه كان يؤرقني . لم أحـب أحداً قط فيما أعتقد وإلا لتذكرت ذلك . اللهم إلا في أحلامي ، وهي عندئذ حيوانات ، حيوانات الأحلام ، لا تشبه في شيء تلك التي تراها تسير في الريف ، ليس في استطاعتي أن أصفها ، مخلوقات رائعة الجمال كانت ، بيضاء في غالبها . ولعل ذلك كان مما يؤسف له على نحو ما ، فلعل امرأة طيبة كان بوسعها أن تصنع مني شيئاً مذكوراً ، لعلني كنت الآن متمدداً في الشمس أمص غليوني وأريت على مؤخرة الجيل الثالث ، قدوة تحتذى وموضع الاحترام ، أتساءل في نفسي عن أصناف العشاء الليلة ، بدلاً من أن أمضي أذرع نفس الطرق القديمة سواء كان الجـو صحواً أو غير صحو ، فلم أكن قط ممن يقتحمون أرضاً جديدة لا ، لست آسف على شيء ، كل ما آسف عليه أنني قد ولدت ، فالموت شيء طويل متعب جداً كما اكتشفت ذلك دائماً . ولكن دعني الآن أكمل من حيث انقطعت ، الجواد الأبيض ثمَّ الغضبة ، لا علاقة بينهما فيما أفترض . ولكن لماذا

نواصل ذلك كله ، لا أدري ، لا بد أن أنتهي منه يوماً ما ، فلم لا أنتهي منه الآن . ولكن تلك أفكاري ، لا يهم ، يا لعاري ، أنا الآن عجوز وواهن القوى ، أتمتم ، في الألم والوهن ، لماذا؟ وأتوقف ، وتنبثق الأفكار القديمة فيّ وتسيل في صوتي ، الأفكار القديمة التي ولدت معي ونمت معي وأُبقيت مكبوتة ، هذه فكرة أخرى . لا ، فلنعد إلى ذلك اليوم ، أي يوم بعيد ، ومن الأرض الباهتة المسلّم بها إلى الأشياء والسماء ، ترتفع العين وتعود مرة أخرى ، ترتفع مرة أخرى وتعود مرة أخرى مرة أخرى ، والقدمان ذاهبتان إلى غير وجهة وإنما إلى وجهة البيت في مكان ما ، في الصباح خارجاً من البيت وفي المساء راجعاً إلى البيت مرة أخرى ، وجرس صوتي طوال اليوم يتمتم بنفس الأشياء القديمة التي لا أصغي إليها بل ليس صوتي كان ذلك في نهاية اليوم ، كقرد صغير جالس على كتفي بذيله الأشعر يؤنسني . كل ذلك الكلام ، خفيضاً ومبحوحاً ، لا غرو كان حلقي ملتهباً . وربما كان من الخير أن أذكر الآن أنني لم أتحدث قط إلى أحد ، وأظن أن أبي كان آخر من تحدثت إليه ، وكانت أمي كذلك . لم نتحدث قط ، لم تجب على سؤالي قط منذ مات أبي . سألتها عن النقود . لا أستطيع أن أعود إلى ذلك الآن ، لابد أن تلك كانت آخر كلماتي لها . كانت تصرخ بي أحياناً ، أو تتوسل ، وإن لم يكن ذلك طويلاً قط ، بضع صرخات فقط ، ثمَّ إذا رفعت بصري وجدت الشفتين العجوزتين الرقيقتين البائستين مضغوطتين معاً والجسم المشيح عني ومجرد ركني العينين عليَّ ، ولكن ذلك كان نادراً . في بعض الأحيان ، بالليل ، كنت أسمعها تتحدث إلى نفسها فيما أفترض ، أو تصلي بصوت مرتفع ، أو تلقي ترانيم . يا للمسكينة ! وإذن بعد الجواد والغضبة ، لا أدري ، مضيت إلى الأمام ، ثمَّ الاستدارة البطيئة ، عائداً ، منحرفاً

أكثر فأكثر إلى أحد الجانبين أو إلى الآخر ، مواجهاً البيت لا أزال ، ثمَّ البيت . آه أبي وأمي ، فكرت أنهما ربما في الجنة ، ما كان أطيبهما . فلأذهب إلى جهنم ، ذلك كل ما أطلب ، وأن أمضي ألعنهما هناك ، وهما ينظران تحت إليَّ ويسمعانني ، لعل ذلك ينزع شيئاً من نعيمهما . نعـــم إنني أؤمن بكل لغوهما عن الحياة الآتية ، ذلك يبهجني ، وشقاء مثل شقائي ، ما من شيء ليقضي على ذلك . كنت مجنوناً بالطبع ، ولا أزال ، ولكن غير ضار ، اعتبروني غير ضار ، ذلك شيء لطيف . لم أكن بالطبع مجنوناً حقيقة ، بل غريباً ، غريباً إلى حد ما ، ومع كل سنة تمضي تزداد غرابتي قليلاً ، ولا يمكن أن توجد مخلوقات أغرب مني ، إلا القليل ، في الوقت الحاضر . أبي : هل قتلته أيضاً كما قتلت أمي ، لعلني فعلت ذلك على نحو ما . لكني لا أستطيع أن أدخل في تفاصيل ذلك الآن ، أنا أكثر شيخوخة ووهناً من ذلك بكثير . الأسئلة تطفو إذ أمضي ، وتتركني وقد اضطربت عليَّ الأمور جداً ، في حالتي التي أنا عليها من الانهيار . إنما فجأة هناك ، لا ، إنها تطفو من عمق قديم ، وتحوم وتتلبث قبل أن تموت . أسئلة ما كانت لو أنني في تمام سلامة عقلي لتعيش لحظة واحدة ، لا ، بل كانت لتتفتت ذرات حتى قبل أن تتكون ، تتفتت ذرات . مثنى مثنى غالباً ما كانت تأتي ، واحدة مباشرة على أثر الأخرى . فكيف أمضي يوماً آخر؟ ثمَّ كيف تسنى أن مضيت إلى الأمام يوماً واحداً آخر؟ أو هل قتلت أبي؟ ثمَّ هل قتلت قط أي أحد؟ على مثل هذا النحو ، إلى العام من الخاص كما يمكن لك القول فيما أفترض ، سؤال وجواب أيضاً على نحو ما محير جداً ، أجاهدها ما وسعني الجهد ، مسرعاً خطوي إذ تأتي ، أطوح رأسي من جانب إلى جانب وإلى أعلى وأسفل ، أحدق في مضض العذاب إلى هذا وذاك ، أزيد من تمتمتي

إلى صرخة ، هذه كلها تساعد . ولكن ما كان ينبغي أن تكون ضرورية . إن شيئاً ما هنا لا يستقيم على وجهه ، لو أنها كانت النهاية لما اهتممت كثيراً ، ولكن ما أكثر ما قلت ، في حياتي ، أمام شيء ما جديد رهيب ، هذه هي النهاية ، ولم تكن هي النهاية . ومع ذلك فلا يمكن أن تكون النهاية بعيدة جداً الآن ، سوف أسقط إذ أنا ماض بين الصخور ، وقبل الصباح أكون قد ذهبت . أعرف أنني أيضاً سوف أنقضي وأعود كما كنت عندما لم أكن بعد ، وإنما بعد أن ينقضي الأمر بدلاً من أن يكون الأمر في انتظار ما يأتي ، ذلك يجعلني سعيداً . وكثيراً الآن ما تتعثر تمتمتي وتموت وأبكي من السعادة إذ أمضي إلى الأمام ومن الحب لهذه الأرض التي حملتني طويلاً ، والتي سرعان ما سوف أصبح مثلها عديم الشكوى . تحت السطح مباشرة سوف أكون ، متجمعاً كلي في البداية ، ثمَّ متفرقاً أنساب مشتتاً عبر الأرض كلها ، وربما في النهاية عبر صخرة إلى البحر ، بعضاً مني . . طـــن من الديدان في فدان من الأرض . تلك فكرة رائعة ، طن من الديدان ، أؤمن بهذه الفكرة ، من أين أتيت بها ، من حلم ، أو من كتاب قرأته في ركن عندما كنت صبياً ، أو كلمة سمعتها ، بينما كنت أمضي ، أو في طوال الوقت ومكبوتة تحت حتى يمكنها أن تمنحني البهجة . هذا هو طراز الأفكار البشعة التي عليَّ أن أصارعها في الطريق كما قلت . والآن أليس هناك ما يضاف إلى هذا اليوم بالجواد الأبيض والأم البيضاء في النافذة؟ . أقرأ مرة أخرى من فضلك وصفي لهما ، قبل أن أصل إلى يوم آخر في وقت يأتي بعد ذلك ، ليس هناك ما يضاف قبل أن أتحرك إلى الأمام في الزمان ، فاتت مئات ، بل آلاف من الأيام على نحو لم أكن بقادر عليه عندئذ ، بل كان عليَّ أن أمر بها بأي شكل حتى جئت إلى اليوم الذي أجيء إليه الآن ،

لا ، لا شيء ، كل شيء قد ذهب إلا أمي في النافذة ، والعنف ، والغضبة ، والمطـر . فلأمضِ إذن إلى هذا اليوم الثاني ، ولنتخلص منه ونزيحه من الطريق ، ولنمض إلى ما بعده . وما يحدث الآن هو أنني كانت تهاجمني وتطاردني عائلة أو قبيلة ، لا أدري ، من حيوانات القاقوم ، شيء خارق إلى أقصى حد ، أعتقد أنها من القاقوم . والواقع . إذا صح لي القول ، فأعتقد أنني كنت حسن الحظ إذ نجوت بحياتي ، تعبير غريب ، ليس له في الأذن وقع صحيح بشكل ما . لو أن شخصاً آخر لكان قد نهش ونزف حتى الموت ، وربما كانت دماؤه قد امتصت حتى البياض ، كأنه أرنب . ها هي تلك الكلمة (البياض) مرة أخرى . أعرف أنني ما كنت بقادر على التفكير قط ، ولكنني لو كنت قادراً عليه ، ثمَّ فكرت بالفعل ، لكنت قد رقدت بكل بساطة وتركت نفسي نهباً للتدمير ، كما يفعل الأرنب . ولكن دعني أبدأ ، كما أبدأ ، كما أبدأ دائماً ، بالصباح والخروج . عندما يعود يوم للمجيء ، أياً كان السبب ، فإنَّ صباحه ومساءه أيضاً يكونان هناك ، وإن كانا في حد ذاتهما غائبين تماماً عن مدار الاهتمام ، أما الخروج والعودة للبيت ، فهذا شيء جدير بالاهتمام فيما أرى . وإذن فقد نهضت في غبشة الفجر ، شديد الوهن ، مضعضعاً بعد ليلة بشعة قاسية لا أحلم بما في انتظاري ، نهضت وخرجت ومضيت . أي وقت من العام كان ، لا أدري حقاً ، وهل يهم ذلك . لم يكن الجـو مطيرا حقا ، بل كان الجو يتقاطر ، كل شيء يتقاطر . فلعل النهار يطلع ، فهل طلع؟ لا ، بل ظل يتقاطر قطرة قطرة ، طوال النهار ، لا شمس ، لا تغيير في الضوء ، معتم طوال النهار ، وساكن ، لا نسمة ولا نفس ، حتى الليل ، ثمَّ سواد وشيء من الريح ، رأيت بضع نجوم بينما كنت أقترب من البيت . عصاي بالطبع ، بفضل العناية

الرحيمة ، لن أقول ذلك مرة أخرى ، ما دمت لا أذكرها ؛ فعصاى في يدي وأنا ماض في طريقي . ولكن بلا معطفي ، سترتي فقط . لم أكن أطيق قط ذلك المعطف ، يخفق ويتخبط بساقي ، أو على الأصح انقلبت عليه في ذات يوم كراهية مفاجئة عنيفة . وكثيراً عندما كنت أرتدي ملابسي للخروج كنت أخرجه وألبسه ، ثمَّ أقف في وسط الغرفة عاجزاً عن الحركة ، حتى يتأتى لي في النهاية أن أخلعه وأضعه مرة أخرى على مشجبة في الدولاب . ولكنني ما كدت أنزل السلالم وأخرج إلى الهواء حتى سقطت العصا من يدي ، وهبطت حتى ركعت على ركبتي على الأرض ، ثمَّ إلى الأمام على وجهي ، شيء خارق إلى أقصى حد ، ثمَّ بعد قليل انقلبت على ظهري ، لم أكن أستطيع قط أن أرقد على وجهي فترة طويلة ، مهما كنت أحب ذلك ، فقد كان يشعرني بالمرض . ورقدت هناك ، نصف ساعة ربما ، ذراعاي ممددتان إلى جانبي وكفا يدي على الحصى وعيناى مفتوحتان على سعتهما تهيمان في السماء . فهل كانت هذه هي تجربتي الأولى من هذا القبيل؟ هذا هو السؤال الذي يهاجم المرء على الفور . سقطات كثيرة سقطتها ، من النوع الذي تستجمع بعده قواك ، إن لم يكن قد انكسرت لك ذراع أو ساق ، وتنهض ، تلعن السماء والإنسان ، مختلفة أشد الاختلاف عن هذه السقطة . بكل تلك الحياة التي مضت من المعرفة ، كيف معرفة متى بدأ ذلك كله . تنويعات السقطة ، واحدة بعد واحدة ، وسمها يغدو آسناً عطناً ، تتبع الواحدة منها الأخرى ، طوال الحياة حتى تستسلم . وهكذا فإنَّ الأشياء القديمة ، حتى على نحو ما ، هي أشياء أولى في كل مرة ، ما من نفسين هما نفس الشيء ، كل شخص يمضي وينقضي ، وكل شيء مرة واحدة ، لا يعود أبداً . ولكن دعني أنهض الآن

وأمضي ، وأخلص من هذا اليوم الرهيب ، وأمضي إلى اليوم التالي . ولكن ما معنى أن أمضي بذلك كله ، ما من شيء . يوم لا أذكره بعد يوم لا أذكره حتى موت أمي ، ثمَّ في مكان جديد سرعان ما هو قديم حتى يصبح ملكي . وعندما أجيء إلى هذه الليلة هنا بين الصخور ، مع كتابي وضوء النجوم القوي ، سوف تكون قد انقضت مني واليوم الذي ذهب قبلها . كتابي الصغير والكبير ، كلها انقضت وذهبت ، أو ربما مجرد لحظات هنا وهناك ما زالت ، هذا الصوت الصغير ربما الذي لا أفهمه فأجمع أشيائي وأعود إلى حفرتي ، انقضت حتى يمكن رواية حكايتها . انقضت ، ومضت ، هناك في قلبي رقعة موطأة لكل الأشياء التي انقضت ومضت ، لا ، بل للمضي والانقضاء . أحب هذه الكلمة ، الكلمات كانت حبي الوحيد ، ليس منها الكثير ، وكثيراً ما قلتها طوال النهار بينما كنت أمضي ، وأحياناً كنت أقول حقيقة ، حقيقة . أولاً هذه التململات التي كانت دائماً تعتريني ، لقضيت حياتي في غرفة ضخمة خاوية ذات أصداء بساعة ضخمة قديمة ذات بندول ، أصغي وأغفو ولا شيء آخر ، وخزانة الساعة مفتوحة حتى أستطيع أن أرقب التأرجح ، أحرك عيني جيئةً وذهاباً ، وأثقال الرصاص تتدلى هابطة إلى أسفل وأسفل ، حتى أنهض من مقعدي وأدير لولب الساعة مرة أخرى ، مرة كل أسبوع . واليوم الثالث كان تلك النظرة التي رماني بها عامل الطريق ، فجأة أرى ذلك الآن ، الجلف الأشعث العجوز ظهره محني نصفين في الخندق تحت ، مستنداً إلى فأسه ، أو أياً كان ذلك الذي يستند إليه ، ينظر حواليه شذراً يزر عينيه ، وإليَّ ، من تحت حافة قبعته العريضة ، والفم الأحمر ، كيف تسنى أن أراه على الاطلاق؟ إنني أتساءل ، هذا أشبه به اليوم الذي رأيت فيه النظرة التي رماني بها «بالف» . ذهبت مذعوراً منه عندما

كنت طفلاً ، واليوم هو ميـت وأنا أشبهه . ولكن دعنا نكمل ما كنا بسبيله ، وندع هذه المشاهد القديمة ونأتي إلى هذه ، وإلى الثواب الذي أستحق . عندئذ لن يكون الأمر كما هو الآن ، يوماً بعد يوم ، إلى الخارج ، إلى الأمام ، دورة إلى الخلف ، إلى الداخل ، كأوراق الشجر تنقلب ، أو تنتزع ، ويلقي بها متقبضة مغضنة ، بعيداً ، بل زمان طويل غير منقطع ليس فيه من قبل ولا من بعد . لا نور ولا ظلام ، ليس فيه من أو إلى أو في . وقد ذهب نصف العلم بحتى وأين وبماذا ، ولكن أنواعاً من الأشياء ما زالت هناك ، كلها مرة واحدة ، كلها ذاهبة ، حتى لا شيء ، لم يكن قط شيء ، لا يمكن أبداً أن يكون ، الحياة والموت كلها لا شيء ، ذلك النوع من الأشياء صوت فقط يحلم ويطن حول كل شيء ، هذا شيء ما ، الصوت الذي كان مرة في فمـك . وإذن فما أن تخرج إلى الشارع ، وتتحرر من ألمك فماذا إذن؟ لا أدري حقاً ، بعد ذلك على الفور كنت واقفاً في الأعشاب أطوح حولي بعصاي أجعل القطرات تتطاير ، والعن ، بسباب قذر ، نفس الكلمات مراراً وتكراراً ، أرجو ألا يكون قد سمعني أحد . حلقي ملتهب جداً ، البلع كان عذاباً ، وشيء ما قد أصاب إحدى أذني ، ظللت أدس اصبعي فيها دون أن أجد راحة ، شيء قديم ربما يضغط على الطبلة ، وسكون خارق يخيم على الأرض ، وفي أيضاً كل شيء ساكن تماماً ، مصادفة ، لماذا كانت اللعنات تتدفق مني لست أدري ، لا ، ذلك قول أحمق ، والتطويح بالعصا ، ما الذي استحوذ عليَّ ، وديعاً وواهناً ، حتى أفعل ذلك ، بينما أناضل أشق طريقي . هل هي حيوانات القاقوم الآن ، لا ، أولاً أهبط وأغوص وأختفي في النباتات ، كانت ترتفع إلى وسطي عندما كنت أمضي في طريقي . أشياء خشنة ، نباتات السرخس الضخمة هذه ، خشبية جداً ، جذوع مخيفة ، تنزع

الجلد من ساقيك ، من خلال ملابسك ، ثمَّ الحفر التي تخفيها ، تكسر ساقك إذا لم تتخذ حذرك ، شيء إنجليزي للغاية ذلك كله ، تسقط وتختفي عن الأنظار . من الممكن أن ترقد هناك أسابيع بطولها ولا أحد يسمعك ، كنت أفكر في ذلك كثيراً هناك عالياً في الجبال ، لا ، ذلك قول أحمق ، مضيت إلى الأمام ، جسمي يبذل كل ما يستطيع من جهد ، من غيري .

جيمس جويس

•

لعلّني أُحب من أعمال جويس ، على نحو خاص ، مجموعته الأولى «أهل دبلن» (التي حاول أن ينشرها على حسابه ، وفشل في ذلك ، فانظر !) كما أُحب «صورة للفنان في شبابه» ، أما «يوليسيس» فمن ذا الذي يستطيع أن يقاومها؟ . كُـتب عن جيمس جويس ما تغصّ به مكتباتٌ حاشدة من الدراسات والتحليلات ، ولعله من أفعل كتّاب القرن العشرين - وما بَعده؟ - أثراً وأكبرهم نفوذاً ، ومع ذلك فإن في «يوليسيس» مناطق بكراً قادرة على أن تُصيبنا بالدهشة . أما «فينيجان ويك» فمن ذا الذي يستطيع أن يقرأها؟ .

جيمس جويس الشاعر له أيضاً سحره الخاص .

هـل تريد أن نعيد الإشارة إلى أهم نقاط حياته ، من حيث تأريخ السيرة؟ أنه ولد في دبلن في يوم ٢ فبراير ١٨٨٢ ، وأنه كان أحد ستة عشر (أو سبعة عشر) ولداً وبنتاً (أبوه لا يذكر بالضبط) وأنه درس الفلسفة واللغة في كلية دبلن بالجامعة الملكية ، وأنه ذهب إلى باريس ثم عاد إلى دبلن واشتغل بالتدريس وتزوج نورا بارناكل ، ثم رحلا معاً إلى زيورخ ، وبعدها إلى تريسته حيث عَـلّم جويس اللغات في مدرسة برليتـز .

عـاد جويس إلى لندن في ١٩١٢ ، وقضى فترة الحرب العالمية الأولى في زيورخ (زرتُ القهوة التي كان يجلس فيها ، وكما لو أنني أحسست وجوداً له غير منظور ، ولكنه قوي) ثم عاش في باريس من ١٩٢٠ حتى مات في يناير ١٩٤١ . عاش ومات ، وقد أوشك أن يفقد بصره تماماً ، فقيراً ، وأحياناً في ضنك مدقع ، وحين كتب «يوليسيس» ونشرها في ١٩٢٢ ، ظلت ممنوعةً في انجلترا وأمريكا سنوات عديدة ، وأخيراً كتب «فينيجان ويك» في ١٩٣٩ .

كتـب هاري ليفين «إنه بتأكيد ذلك الظل المقطوع من المعنى ، وتلك اللحظة غير المكتملة ، وتلك الإمكانية غير المتحققة ، يجدد إدراكنا للواقع ، يُقوي تعاطفنا مع المخلوقات شركائنا وزملائنا ، ويتركنا في حالة رَوْع أمام أشياء الخليقة» .

النُزُل

كانت مسز موني زوجة جزار . امرأة جد قادرة على أن تبقي آراءها سراً مكنوناً . امرأة قوية العزيمة . كانت قد تزوجت بريّس عمال أبيها ، وفتحت دكاناً للجزارة بالقرب من سبرنج جاردنز ، إلا أن مستر موني ، بمجرد أن مــات حموه ، راح ينحدر إلى الهاوية ، يسكر ، وينهب إيراد الخزينة ، ويغرق في الدين إلى أذنيه . وما كان من المجدي أن تؤخذ عليه العهود والمواثيق فقد كان من المؤكد أنه كان سيحنث بها بعد أيام قلائل ، ومن ثم كسدت تجارته بعد أن جعل يشتجر مع زوجته أمام الزبائن ويشتري اللحم الفاسد . وفي ليلة من الليالي هجم على زوجته بساطور واضطرت ليلتها أن تبيت عند جارة لها .

وافترقا بعد ذلك . ذهبت إلى القسيس وحصلت على حكم بالانفصال عن زوجها مع حضانة الأولاد . وما كانت ترضى أن تعطيه مالاً أو طعاماً أو تسمح له بالإقامة في البيت ، ومن ثم اضطر إلى أن يدرج نفسه في عداد رجال شرطة «الشــريف» . كان سكيراً رثّ الملبس محني الظهر ، وكان أبيض الوجه أبيض الشارب أبيض الحاجبين كأنما خطّ حاجباه بالقلم على عينيه الصغيرتين المتورمتين اللتين تسري فيهما عروق وردية اللون . وكان يقضي اليوم بطوله جالساً في مكتب محضر المحكمة في انتظار أن يُستدعى للعمل . أما مســز موني التي كانت قد أخذت ما تبقى من مال دكان الجزارة ، وأنشأت نُـزُلاً في

شارع هاردويك ، فقد كانت امرأة ضخمة مهيبة . أما سكان نزلها العابرون الذين يلمّون به إلماماً دون أن يقيموا طويلاً ـ فمن السياح الوافدين من ليفربول وجزيرة مان ، وفي بعض الأحيان (آرتيستات) من الكباريهات . ولكنَّ النزلاء المقيمين من كتبة الشركات والنزلاء . وكانت تَـحكُـم النزل بحصافة وحزم ، تعرف متى تسلف مالاً ، متى تكون صارمة ومتى تدع الأمور تجري في أعنّتها . وكان كل الشباب من نزلائها المقيمين يطلقون عليها اسم «المدام» .

كـان الشباب من نزلاء مسـز موني الدائمين يدفعون خمسة عشر شلناً للطعام والسكنى (وكانت البيرة أو الاستاوت غير محسوبة ضمن العشاء) ، وكانوا يتشاركون الميول والاهتمامات ، ومن ثمّ فهم أصدقاء لا كلفة بينهم ، يتناقشون في احتمالات فـوز الخيل في السباق سواء منها الخيل المضمونة الأثيرة عند الجمهور ، أو الخيل الجديدة الطارئة .

وكان جاك موني ـ ابن «المدام» ـ كاتباً عند سمسار بالعمولة في شارع فليت ، وكان ذائع الصيت ، صلب المكسر ، له ولع باستخدام بذاءات العساكر في حديثه ، ومن عادته أن يرجع للبيت في آخر الليل ، فإذا التقى بأصدقائه كانت عنده دائماً نكتة حلوة لهم ، ومن المؤكد دائماً أن عنده لهم خبراً طيباً أيضاً ، يعني حصان ينتظر منه المكسب ، أو أرتيست يمكن أن يأتي منها الخير ، وكان بارعاً خفيف اليدين في لعب الورق أيضاً وله مقدرة على الغناء المرح . وفي ليالي الأحد تتحلق الجماعة في غرفة الاستقبال الأمامية بالنزل في أغلب الأحيان ، ولا تبخل أرتيستات الكاباريه بفنّهن ، تعزف شريدان ألحان رقصات الفالس والبولكا وتغوي من يغني معها ، وتغني بولي موني ، بنت «المدام» :

أنـا بنـت لعـوب

لا . . لا داعي للتظاهر
أنت تعرف أني لعــوب

وكانت بولي رشيقة هيفاء في التاسعة عشرة ، لها شعر ناعم خفيف وفـم صغير ممتلىء ، وعينان رماديتان يتخللهما ظلٌ من الخضرة ، ومن عادتها أن ترمق محدثها بنظرة تسددها إلى أعلى فتبدو وكأنها عذراء صغيرة عابثة .

أرسلت مسز موني فتاتها لتعمل كاتبة على الآلة في مكتب تاجر للقمح ، ولكن أحد رجال «الشريف» من ذوي السمعة السيئة كان يأتي للمكتب مرة كل يومين ، ويطلب أن يسمح له بأن يقول كلمتين لابنته ، فاضطرت مسز موني أن تعيد فتاتها إلى البيت مرة أخرى ، وتكلفها بالأعمال المنزلية . ولما كانت بولي دفاقة الحيوية فقد كانت النية أن تسلّط على الشبان المقيمين في النزل ، هذا إلى أن الشبان يحبون الإحساس بأن هناك فتاة غير بعيدة جداً عنهم .

وكانت بولي بالطبع غـزِلة مع الشبان ، ولكن مسـز موني بحصافتها كانت تعرف أن الشبان إنما يمضون الوقت فقط ، فما كان أحدهم جاداً بالفعل . وسارت الأمور على هذا النحو أمداً طويلاً حتى بدأت مسز موني تفكر في أن ترسل بولي مرة أخرى للعمل على الآلة الكاتبة ، ولكنها لاحظت أن ثـمّ شيئاً يدور بين بولي وأحد الشبان فراحت تراقبهما في صمت .

وكانت بولي تعرف أنها تحت الرقابة ولكن صمت أمها الدائب المستمر لم يكن موضعاً لأي سوء فهم . لم يكن ثمّ تواطؤ صريح بين الأم والبنت ، ولا تفاهم صريح ، ولكن مسز موني لم تتدخل ، على الرغم من أن الناس في النُـزُل أخذوا يتكلمون عن المسألة . فقد أصبحت بولي غريبة السلوك شيئاً

ما ، وكان الشاب واضح القلق والاضطراب . وفي الآخر تدخلت مسز موني عندما رأت أن الوقت قد أزف . كانت تعالج المسائل الخُـلُـقية كما ينزل الساطور باللحم ، وفي هذه المسألة عقدت عزمها .

كان ذلك في صبح يوم مشرق من أيام الأحد في الصيف ، واعد بالحر وإن كانت تهبّ فيه نسائم منعشة ، وكل نوافذ الـنُـزُل مفتوحة ، والستائر المصنوعة بالدانتللا تنتفخ بالهواء ، برقة ووداعة ، نحو الشارع ، تحت الضلف المرفوعة . ناقوس برج كنيسة سان جورج يقرع دون توقف . والمصلون ، فرادى أو جماعات ، يعبرون الساحة الصغيرة المستديرة أمام الكنيسة ، يكشفون عن نيتهم بسلوكهم الهادىء المستكنّ وبالكتب الصغيرة في أيديهم المكسوّة بالقفازات . والنزلاء قد فرغوا من الإفطار بالنُـزُل ، والمائدة في غرفة الإفطار مغطاة بالأطباق التي تمتد عليها شرائط صفراء من آثار البيض وفتات لحم الخنزير المقدد ودهنه .

وكانت مسز موني تجلس في المقعد ذي الذراعين القشّ ، ترقب ماري ، خادمتها ، وهي ترفع بقايا الإفطار ومعداته ، وحملت ماري على أن تجمع فتات الخبز ، وقشره ، لتنفع في عمل فطيرة يوم الثلاثاء . فلما نُظِّفت المائدة وسُوِّيت ، وجُمِع فتات الخبز ، ووضُع السكر والزبد في أمان وخُتِم عليهما بالقفل والمفتاح ، أخذت مسز موني تستعيد في ذهنها ما دار من حديث بينها وبين بولي في الليلة الفائتة . كانت الأمور تجري مصداقاً لريبها . كانت أسئلتها صريحة ، وإجابات بولي عنها صريحة . كانتا محرجتين قليلاً ، بالطبع ، كلتاهما . مسز موني محرجة لأنها لا تريد أن تتلقى الخبر بطريقة فيها تساهل مسرف ، أو أن تبدو وكأنها دبرت الأمور خفية . وبولي محرجة لا لمجرد أن كل

التلميحات من هذا القبيل تحرجها ، بل لأنها أيضاً لم تكن تريد أن يقال عنها - وهي البريئة العاقلة - أنها قد خمنت النية التي تكمن وراء تسامح أمها .

رمقت مسز موني ، بحركة غريزية ، الساعة المذهبة الصغيرة على رخام المائدة ، بمجرد أن أحسَّت ، في شرودها الساهم ، أن أجراس كنيسة سان جورج قد توقفت عن الدقّ . كانت الساعة الحادية عشرة وسبع عشرة دقيقة . لديها فسحة من الوقت لتصفية الأمور مع مستر دوران ، فسوف تلحق بشارع ملبرو قبيل الثانية عشرة .

كانت على يقين من أن الفوز من نصيبها . فأولاً كان الرأي العام الاجتماعي بكل وزنه في صفّها : لقد كانت أمّاً قد انتهكت حقوقها ، سمحت له بأن يعيش تحت سقفها على اعتبار أنه رجل شريف يقدر الشرف حق قدره ، لكنه امتهن ضيافتها . كان في الرابعة والثلاثين أو الخامسة والثلاثين ، ومن ثم فلا يمكن التعلل بالشباب عذراً ، ولا الجهل يمكن أن يعد عذراً له فقد كان رجلاً خبر الحياة . إنه ، بكل بساطة ، قد انتهز فرصته في شباب بولي وقلة خبرتها ، ذلك كان واضحاً . إنما المسألة هي : بماذا بوسعه أن يعوّضها؟ .

يجب أن يكون ثمّ تعويض في مثل هذه الحالات . الأمر عند الرجل سهل ويسير ، بوسعه أن يذهب في سبيله كأن شيئاً لم يكن ، أما الفتاة ، فعليها أن تحمل العبء كله . بعض الأمهات يقنعن بأن يلفقن حلاً لمثل هذه المسألة مقابل مبلغ من المال ، وإنها لتعرف بعض هذه الحالات ، لكنها لم تكن لتفعل شيئاً من هذا القبيل . ليس إلا تعويض واحد عندها مقابل فقدان شرف بنتها : الـــزواج .

أحصت كل الأوراق التي بيدها ، مرة أخرى ، قبل أن تبعث بماري فوق إلى

غرفة مستر دوران ، لتقول إنها تريد أن تتحدث إليه ، وكانت تشعر باليقين من أنها سوف تكسب . كان شاباً جاداً لا يجنح إلى الخلاعة ، وليس بجهير الصوت مثل الآخرين . لو كان الأمر يتعلق بمستر شريدان ، أو مستر ميد ، أو بانتام ليونز ، لكانت مهمتها أشق بكثير . وما كانت تظن أنه بقادر على مواجهة الضجة والتشهير . كان كل المقيمين في النزل يعرفون شيئاً عن المسألة ، لفق بعضهم شيئاً من التفاصيل . هذا إلى أنه كان يعمل في خدمة مكتب كبير يملكه تاجر نبيذ كاثوليكي ، منذ ثلاثة عشر عاماً بطولها ، ولعل الضجة واستطارة السمعة تعني فقدان عمله . أما إذا وافق ورضي فقد يجري كل شيء على خير حال . كانت تعرف أنه فطين عاقل ، على الأقل ، وكانت تتصور أنه قد ادخر شيئاً من المال .

نصف ساعة تقريباً ! نهضت ، وتفحصت نفسها في المرآة الكبيرة بين النوافذ ، وأرضاها التعبير الحاسم على وجهها الكبير المحمر ، وفكّرت في بعض الأمهات اللاتي تعرفهن ، ولم يستطعن أن يتخلصن من بناتهن .

كان مستر دوران شديد القلق حقاً في صباح هذا اليوم من أيام الأحد . حاول أن يحلق ذقنه مرتين ، ولكن بلغ من رعدة يده أنه اضطر إلى أن يكفّ . كان يحفّ بفكّيه شعر لحية «ضارية» إلى الاحمرار مرت عليها أيام ثلاثة ، وفي كل دقيقة أو دقيقتين تتجمع ضبابة على زجاج نظارته حتى ليضطر إلى أن يخلعها ويمسحها بمنديله . كانت ذكراه لما اعترف به الليلة مبعثاً لألم حاد ، كان القس قد جرّ منه كل التفاصيل المثيرة للهزء والسخرية في المسألة ، وضخّم في النهاية خطيئته ، حتى أوشك مستر دوران أن يكون شاكراً إذ تتاح له فُرجةٌ ينفذ منها إلى إصلاح ما أفسده . البلوى قد وقعت . فمن المؤكد أن الحديث

سوف يدور عنه ، ومن المؤكد أن صاحب العمل سوف يسمع به ، فإن دبلن مدينة صغيرة جداً : الناس جميعاً تعرف كل شيء عن شؤون الناس جميعاً . أحس قلبه يثب ساخناً إلى حلقه إذ سمع في خياله المضطرب المهتاج مستر ليونارد العجوز يدعو بصوته الذي ينطوي على نبرة احتكاك خشن خدّاش :

ـــ ناد مستر دوران من فضلك .

كل السنوات الطوال التي أمضاها في العمل تذهب سدى ، جدّه ومثابرته كلها تمضي أدراج الرياح ! كان في صباه قد انساق خلف نزوات الصبا ، بطبيعة الحال ، وكان قد فاخر بحريته في التفكير وأنكر وجود الله أمام زملائه في الحانات ، لكن ذلك كله قد مضى وانقضى . . تقريباً . فما زال يشتري نسخة من صحيفة «رينولدز» كل أسبوع ، لكنه يقوم بفروض دينه ويحيا حياة سويّة منتظمة تسعة أعشار السنة ، ولديه من المال ما يكفي للاستقرار فلا شأن لتلك الناحية من الأمر . لكن أسرته سوف تنظر إلى الفتاة من عل وتقتحمها بالزراية . فثمّ أولاً أبوها ، وله شهرته المستطيرة ، ثم أن نزل أمها كان قد بدأت تعلق به سمعة . كان في ذهنه أنه قد أحدق به وحوصر . في وسعه أن يرى أصدقاءه يتحدثون في الأمر ويضحكون . كانت الفتاة بالفعل سوقية مبتذلة شيئاً ما . وكانت أحياناً تقول عبارات لا تتفق مع سلامة اللغة ، ولكن فيمَ كانت اللغة تهم لو أنه كان يحبها حقاً؟ لم يكن في وسعه أن يحسم أمره فيما إذا كان يحبها أو يزدريها لما فعلت . إنه بالطبع قد فعلها أيضاً . كانت غريزته تحثه أن يبقى حراً ولا يتزوج ، كنت تهيب به أنه إذا تزوج فقد ضاعت عليه .

بينما كان يجلس ، عاجزاً قليل الحيلة ، على حرف السرير ، يلبس القميص والبنطلون ، طرقت على بابه طرقات خفيفة ودخلت . وأخبرته بكل شيء ،

أنها أفضت إلى أمها بالسرّ كله وأن أمها سوف تكلمه هذا الصباح . وبكت ، وألقت بذراعيها حول عنقه وهي تقول :

ــ أوه ، بوب ، بوب ! ماذا أفعل؟ ماذا أفعل على وجه الإطلاق ! .

وقالت إنها ستقضي على نفسها .

هدأ من روعها ، في ضعف ووهن منه ، يقول لها ألا تبكي ، وأن كل شيء سيجري على ما يرام فلا تخشي شيئاً . وأحس على قميصه باضطراب صدرها .

لم يكن ما حدث يُعزَى كله إلى خطئه وحده . كان يذكر حقّ الذكر ، بما للرجل العزب من ذاكرة صابرة غريبة ، أولى المداعبات العارضة التي منحته إياها ثيابها وأنفاسها وأصابعها . وفي وقت متأخر ذات ليلة بعد ذلك ، عندما كان يخلع ملابسه استعداداً لأن يأوي إلى فراشه ، دقت على بابه دقات حييّة خجول . كانت تريد إشعال شمعتها من شمعته ، إذ أن هبّة رياح قد أطفأتها . كانت تلك ليلة حمّامها ، وكانت ترتدي جاكيتة فضفاضة مفتوحة من الفانيللا المشجّرة . وكان كعبها الأبيض يومض من فتحة شبشبها الشبيه بالفرو والدم يتوهج دافئاً من وراء جلدها المعطر . وثمّ عطر خفيف كان يهبّ أيضاً من يديها ورسغيها إذ كانت تشعل شمعتها وتثبتها .

وعندما كان يعود متأخراً جداً في الليل كانت هي التي تسخّن له عشاءه ، فلم يكد يعرف ماذا يأكل إذ يحسها بجانبه ، في الليل ، في المنزل النائم . ثم كيف كانت ترعاه وتسهر على راحته . فلو كان الليل بارداً أو ممطراً أو عاصفاً ، على أي نحو ، فما كان يفوتها قــط أن تعد له كأساً صغيرة من «البانش» .

فلعلهما يمكن أن يكونا سعيدين ، معاً . . .

كان من عادتهما أن يصعدا السلالم معاً ، على أطراف القدمين ، كلٌّ معه شمعته ، وعند البسطة الثالثة ، يتبادلان «ليلة سعيدة» على الرغم منهما ، وكان من عادتهما أن يتبادلا القبلات . وكان يتذكر ، تماماً ، عينيها ، ولمسة يديها ، وسورة هذيانه . . . .

ولكن الهذيان يمضي وينقضي . كان يردد لنفسه عبارتها ، إذ ينسبها إلى نفسه : «ماذا أفعل؟» حذرته غريزة الرجل العزب أن يتراجع . ولكن خطيئته كانت هناك ، بل إن حسه بالشرف كان يملي عليه أنه لا مناص من اقتضاء التعويض عن مثل هذه الخطيئة .

وبينما كان جالساً على جانب السرير جاءته ماري وقالت له إن الآنسة تطلب أن تراه في الردهة . وقف لكي يلبس صديريته وسترته وقد استبد به العجز وفقدان الحيلة أكثر من أي وقت مضى . وعندما أتمّ لبسه ذهب إليها ليهدىء من روعها ، لا تخشى شيئاً ، كل شيء سيكون على ما يرام . تركها وهي تبكي على السرير ، وتئن أنيناً خافتاً : «آه يا إلهي !» .

وإذ كان ينزل السلالم غشى نظارته ضباب من البلل حتى اضطر إلى أن يخلعها ويمسحها . كان يتوق لأن يصعد من خلال السقف ويطير محلقاً إلى بلد آخر لا يسمع فيه أبداً عن مشاكله ومع ذلك فإن قوة ما كانت تدفعه إلى نزول السلالم ، درجة بعد درجة . كان وجــه صاحب العمل ، ووجه «المدام» صارمين ، لا هوادة فيهما ، يحدقان فيه . وعند آخر درجة من السلالم مــرّ بجانب جاك موني الذي كان يصعد من مخزن المؤونة يهدهد بين ذراعيه زجاجتين من شراب «الباس» . تبادلا تحية باردة ، وتلبثت عينا العاشق ،

هنيهة ، على ذلك الوجه الجافي الذي يشبه البولدوج ، والذراعين القصيرتين الغليظتين . وعندما هبط إلى الأرض رفع عينيه ورأى جاك ينظر إليه من باب الغرفة .

فجأة تذكر تلك الليلة عندما كان هناك أحد آرتيستات الكاباريه وهو لندنيّ ، أشقر صغير الجسم ، ثم عرّض بكلمة فيها شيء من الحرية إلى بولي . أوشكت الجماعة الصغيرة عندئذ أن تنقضّ وتتقوّض من عنف ردّ جاك عليها ، بذل الجميع جهدهم في أن يسكّنوا من ثائرته ، أما الآرتيست وقد زاد شحوب وجهه قليلا عن المألوف فقد ظل يبتسم ويقول إنه ما كان يقصد سوءاً . لكن جاك راح يزعق في وجهه أنه لو حاول أحد أياً كان أن يلعب مثل هذه اللعبة مع أخته فإنه سوف يكسر له أسنانه ويقذف بها في وجهه ، نعم ، ذلك ما سوف يفعل .

بقيت بولي جالسة على طرف السرير ، فترة وجيزة ، تبكي . ثم رقأت دمعها ومضت إلى المراة وغمست طرف المنشفة في إبريق الماء ونضحت عينيها بالماء البارد ترد إليهما الانتعاش ونظرت إلى نفسها من على جنب ، وسوّت دبوسا من دبابيس شعرها فوق أذنها . ثم رجعت إلى السرير وجلست عند آخره وراحت تحملق إلى الوسائد طويلا ، فأيقظ مرآها ذكريات خفية لطيفة في ذهنها ، أراحت مؤخر عنقها على حاجز السرير الحديدي البارد وراحت في حلم ساهم ولم يعد يبدو على وجهها أدنى قلق أو اضطراب .

بقيت تنتظره صابرة ، توشك أن تكون مبتهجة ، من غير انزعاج ، وذكرياتها تفسح السبيل بالتدريج أمام أماني المستقبل ورؤاه . وكانت أمانيها ورؤاها من التعقد والتشابك حتى ما عادت ترى الوسائد البيض التي كانت تتعلق بها

نظرتها ولا عادت تتذكر أنها تنتظر شيئاً .

وفي الآخر سمعت أمها تنادي ، فهبت واقفة ، وجرت إلى حاجز السلم .

ــ بولي . . ! بولي . . !

ــ نعم يا ماما؟ .

ــ تعالي يا عزيزتي . مستر دوران يريد أن يتحدث إليك .

عندئذ تذكرت ماذا كانت تنتظر .

دايلان توماس

●

هذا الشاعر الجميل مـــات وهو في التاسعة والثلاثين من عمره ، في ١٩٥٣ عندما كان يزور الولايات المتحدة الأمريكية . جاء أصلاً من ويلز . ولم يشتهر فقط بشعره بل بكتاباته النثرية أيضاً ومنها «صورة الفنان كلباً صغيراً» و«مبكراً جداً ذات صباح» و«مغامرات في تجارة الجلد» . كان قد ولد في «سوان سي» وفي الثانية عشرة من عمره كان قد بدأ يكتب شعراً بدا كأنما لا سابقة له في الشعر الإنجليزي . وتوالت كتبه الشعرية المنشورة «ثماني عشرة قصيدة» في ١٩٣٤ ثم «احدى وعشرون قصيدة في ١٩٣٦» و«خريطة الحب» ثم «ميتات ودخلات» ١٩٤٦ وأخيرا «في نوم الريف» في ١٩٥١ ، ثم «القصائد الكاملة» في ١٩٥٢ .

يعتبره النقاد أحد أعظم سادة الشعر الإنجليزي ، إذ ابتدع لغة خاصة به ، كما ابتكر أشكالا جديدة في الشعر ، مرتبطة كلها بحس ديني عميق صارم الدقة وعلى حد عبارة كاتب كتب مرثيته بعد وفاته بيوم واحد ، آثر أن يحتفظ باسمه غفلاً :

«كان شعره حتى في المراحل الأولى شعراً عريقاً ، لا يرفض القِدَم من أجل الراهن ، بل يبحث ـ بكل وسائل وحيل اللغة ـ عن سلفية اللحظة الراهنة»

الشجرة

كان يرتفع من البيت الذي يواجه تلال جارفيس ، من بعيد ، برج تبنى فيه طيور النهار أعشاشها وتطير حواليه البوم في الليل . ومن القرية كان النور في نافذة البرج يومض ، كسراج الليل ، من خلال زجاج النافذة . ولكن يندر أن كانت تضاء الغرفة التي تقع تحت أعشاش العصافير . كانت العناكب تنسج شباكها على سقفها ، وكانت الغرفة تحدق عبر عشرين ميلا من الأرض بآكامها ووهادها ، وكانت أركانها تبقى على أسرارها حيث كانت تبدو آثار مخالب في التراب .

كان الطفل يعرف البيت من السطح إلى القبو ، يعرف رقع الحديقة المكسوة بالخضرة في غير انتظام ، وكوخ البستاني حيث تتفجر الأزهار من قواريرها . ولكنه لم يستطع أن يعثر على المفتاح الذي يفتح باب البرج .

كان البيت يتغير ويحول إذ يتغير مزاج الطفل ويحول ، وكانت رقعة الحديقة هي البحر أو الشاطىء أو السماء أو ما شاء لها أن تكون . وعندما تكون رقعة الحديقة شوطا طويلا حزينا من المياه ، والطفل يمخر عبابها على زهرة مكسورة ، كان البستاني يخرج من كوخه بالقرب من جزيرة الشجيرات ويأخذ عصاه بدوره ، ويمخر العباب . كان يمتطي مكنسة الحديقة ، ويطير حيثما أراد له الطفل أن يطير . كان يعرف كل الحكايات منذ أن بدأ العالم .

كان يقول : في البداية ، كانت هناك شجرة .

أي نوع من أنواع الأشجار؟ .

الشجرة التي يصفر فيها هذا الشحرور .

فصاح الطفل : صقر . . صقر .

وكان البستاني ينظر إلى الشجرة ، ويرى صقراً ضخماً يحط على غصن منها ، أو نسرا يهتز في الرياح .

كان البستاني يحب الإنجيل ، وعندما تغيب الشمس وتمتلىء الحديقة بالناس ، كان يجلس ومعه شمعة في كوخه يقرأ عن الحب الأول وعن أسطورة التفاح والأفاعي ، ولكنه كان يحب قصة موت المسيح على شجرة ، أكثر من أي شيء . كانت الأشجار تصنع سوراً حواليه ، وكان يعرف تقلب الفصول ، بألوان كألوان الشجر واندفاع العصارة في الجذور المغطاة . كان عالمه يتحرك ويتغير إذ يتحرك الربيع على طول الأغصان فيتغير من عريها . وكان إلهه يرتفع كشجرة من الأرض التي تتخذ قالب التفاح . ويعطي أطفاله براعم تتفتق ، ويترك أطفاله تهب بها نسمات الشتاء فتطيح بها ، كان الشتاء والموت يتحركان في ريح واحدة . كان يجلس في كوخه ويقرأ عن القلب ، وينظر من فوق أصص النبات على رف نافذته إلى ليالي الشتاء وكان يفكر في أن الحب يخفق في مثل هذه الليالي وأن كثيرا من أطفاله تحصد أعمارهم .

كان الطفل يغيّر ، بلعبه ، من معالم الحديقة الرثة . وناداه البستاني باسم أمه ، وأجلسه على ركبته ، وحدَّثه عن أعاجيب أورشليم وعن الميلاد في الحظيرة .

في البداية كانت هناك قرية بيت لحم .

بذلك همس إلى الطفل قبل أن يدق جرس الشاى من العتمة النامية .

أي بيت لحم؟ .

قال البستاني : بعيداً ، في الشرق .

إلى الشرق كانت تقوم تلال جارفيس ، تحجب الشمس ، أشجارها تجتذب القمر فيصعد من أعشاب الأرض .

كان الطفل راقداً في السرير ، يرقب الحصان اللعبة ويتمنى لو كانت تنمو له أجنحة حتى يرقاه ويركبه في سماء بلاد العرب . ولكن رياح ويلز كان تهب بالستائر والجداجد تحدث صوتا في الارض الخلاء الشفتاء ، تحت النافذة كانت هناك لعبة ميتة وأخذ يبكي ، ثم كف ، فلم يكن يعرف سبباً للبكاء ، كانت الليلة عاصفة باردة وكان يحص الدفء تحت الملاءات ، كان الليل كبيرا كأنه جبل . وكان هو صبيا في سريره .

وأغمض عينيه ، وحدق في مغارة مدومة أعمق من ظلام الحديقة حيث تقف وحدها أول شجرة تعلقت بها الطيور غير الحقيقية ، وحدها وساطعة مثل النار وجرت الدموع راجفة تحت جفنيه ـ إذ كان يفكر في الشجرة الأولى التي غرست قريبة منه ، بهذا القرب منه ، كأنها صديق في الحديقة . وتسلل من السرير ، ومشى على أطراف أصابعه إلى الباب . وثـب الحصان اللعبة إلى الأمام ، على زنبركاته ، فأفزع الطفل ودفعه إلى أن يهرول ، بلا صوت ، راجعاً إلى سريره . نظر الطفل إلى الحصان ، وكان الحصان هادئا ساكنا ، وسار على أطراف أصابعه مرة أخرى على السجادة ، ووصل إلى الباب ، وأدار مقبضه ، وجرى إلى بسطة السلم وشقَّ طريقه إلى أعلى السلم وهو يتحسس أمامه دون

أن يرى . نظر إلى أسفل السلم المظلم إلى الردهة ، ورأى حشدا من ظلال تنحني وتتقوس خارجة من الأركان وداخلة إليها وسمع أصواتها المتمقجة ، وهو يتصور حدقات أعينها وأذرعتها النحيلة . ولكنها ستكون بلا شك صغيرة ، خفيفة ، لا دماء فيها . لن تكون مدرعة بسلاح غير درني ، بل ملفوفة بقماش رقيق في مثل وهن شباك العنكبوت سوف تهمس بينما يسير بجانبها ، وتمسه على كتفه ، وتهمس له «سس» في أذنه ، وهبط السلم ، فلم يتحرك ظل واحد في الردهة ، وكانت الأركان خالية خاوية . مد يديه وربت على الظلام ، وهو يفكر أنه سوف يحس رأسا جافا مخملي الملمس ، يزحف ويتسلل تحت أصابعه ، ويتفلفل ، كالضباب ، تحت أظافره ، فتح الباب الأمامي ، واندفعت الظلال إلى الحديقة .

وما أن وجد نفسه في ممر الحديقة حتى زالت مخاوفه . كان القمر قد نام على مهاد الأزهار التي لم تحدث منها الأعشاب ، وكان الصقيع مفروشاً على العشب . ووصل أخيرا إلى الشجرة المستضيئة في نهاية الممر الطويل المكسو بالحصباء ، أقدم من أعجوبة الضوء نفسه ، وحشرات الخشب نائمة تحت اللحاء ، والأغصان ممتدة متصلبة من جذع الشجرة . إنها أذرع متجمدة ممتدة من جسم امرأة . ومسَّ الطفل الشجرة ، فانحنت تحت لمسته . رأى نجما ، أسطع ضوءا من أي نجم في السماء ، يشتعل بلهب ثابت موصول فوق برج الطيور الأولى ، لا يلمع نوره إلا على الأغصان الجرداء من الورق ، وجذع الشجرة ، والجذور المسافرة .

لم يكن الطفل قد ساوره شك في الشجرة . تلا صلواته أمامها ، مثنيَّ الركبتين على هشيم الأغصان المسودة التي أتت بها رياح الليل إلى الأرض . ثم

جرى راجعا ، وهو يرتجف من الحب والبرد ، على أرض الحديقة المعشوشبة ، حتى البيت .

كان في شرق الناحية أبله يذرع الأرض كالشحاذ ، كان يطلب خبز يومه إحسانا وصدقة من بيت في مزرعة أو من كوخ أرملة . وكان أحد القسس قد أعطاه حُلة ذات مرة ، فهي تتهدل على أضلاعه الجائعة وكتفيه ، وتتموج بها الريح إذ يهرول عبر الحقول ولكنَّ عينيه كانتا واسعتين ، وعنقه كان صافيا لا تشوبه شائبة من قذارة الريف ، فلم يكن أحد يرفض له طلبا . فإذا طلب جرعة ماء أعطيت له جرعة لبن .

من أين تأتي؟ .

قال : من الشرق .

ومن ثم عرفوا أنه أبله ، وأعطوه وجبة طعام مقابل أن ينظف الفناء .

وبينما كان منحنيا بالجاروف على الروث والحبوب التي وطأتها الأقدام والحوافر ، سمع صوتا يرتفع في قلبه . وضع يده في وسط تبن البهائم ، وأمسك فأرا ، وربت بيده على فمه ، وتركه يمضي .

كانت فكرة الشجرة تعجب الولد طوال النهار ، وكانت تقوم في أحلامه طوال الليل كما كان النجم يقف فوق الحديقة . وفي صباح يوم من أيام منتصف ديسمبر ، بينما كانت الريح تهب من أقصى التلال وتدور حول البيت ، ولم يكن ثلج الساعات المظلمة قد ذاب بعد من فوق السطوح وأعشاب الحدائق ، جرى الولد إلى كوخ البستاني ، كان البستاني يصلح جاروفا وجده مكسورا ، ودون أن ينبس بكلمة جلس الولد على صندوق

للبذور عند قدميه ، وأخذ يراقبه وهو يشد أسنان الجاروف لكنه كان يعرف أن كل تلك الأسلاك لن تجمع الأسنان معا . ونظر إلى حذاء البستاني العالي مبللاً بالثلج إلى ركبتيه المرقعتين إلى أزرار سترته المخلوعة وإلى طيات بطنه تحت قميصه الفانيلا المرقع ، نظر إلى يديه وهما مشغولتان بالعُقد الذهبية لسلك ، كانتا يدين صلبتين ، وداكنتين وبقع التربة تحت الأظافر المكسورة ، وبقع الطباق على أطراف الأصابع .كانت غضون وجه البستاني معقودة في عزم إذ يعقد الأسنان الحديدية مرة بعد مرة لكنه يحسها تهتز قلقة في موضعها من المقبض . كان الطفل خائفا من قوة الرجل الشيخ ومن افتقاره إلى النظافة لكنه سرعان ما ثاب إليه الاطمئنان إذ نظر إلى اللحية الطويلة اللكَّة ، لا تشوبها شائبة ، بيضاء كالفراء ، كانت لحية أحد الرسل .

قال الطفل : كنت أصلّي للشجرة .

قال البستاني : وهو يفكر في الجلجنة وفي عدن ، صلِّ دائما لشجرة .

أصلّي للشجرة كل ليلة .

صلِّ لشجرة .

انزلق السلك من على الأسنان .

أصلي للشجرة .

انقطع السلك .

كان الطفل يشير ، من فوق بيت الأزهار الزجاجي إلى الشجرة التي كانت وحدها من بين كل أشجار الحديقة لا تحمل علامة من الثلج .

قال البستاني : شجرة بيلسان ، ولكن الطفل وقف من على صندوقه وصاح بصوت بلغ من ارتفاعه أن سقط الجاروف المكسور ، وهو يقرقع ، على

الأرض وقال الطفل :

الشجرة الأولى . الشجرة الأولى التي قلت لي عنها ، في البداية كانت الشجرة هكذا قلت لي ، وأنا سمعتك .

قال البستاني شجرة البيلسان شأنها شأن الأشجار جميعاً ، قال ذلك وهو يخفض صوته حتى يطايب الطفل .

قال الطفل هامسا ، الشجرة الأولى ، أول شجرة من بينها جميعا .

وثاب إليه الاطمئنان مرة أخرى من صوت البستاني فابتسم من خلال النافذة للشجرة ، ومرة أخرى زحف السلك على الجاروف المكسور .

قال الشيخ : إن الله ينمو من خلال أشجار غريبة وأشجار تخلد إلى الراحة الأخيرة في أماكن غريبة .

وبينما كان يقص حكاية مراحل الصليب الاثني عشرة كانت الشجرة تهز أغصانها للطفل وصعد من الرئتين اللتين ببطنهما فأر الطباق صوت رسول :

ويعد ذلك رفعوه على شجرة ودقوا المسامير في بطنه وقدميه .

كان هناك دم شمس الظهر على جذع شجرة البيلسان يلطخ اللحاء .

كان الأبله يقف على تلال جارفيس ينظر إلى الوادي الطاهر الذي ترتفع من مياهه وأعشابه ، ضبابات الصباح وتضيع ، رأى الندي وهو يتحلل والماشية وهي تحدق إلى الجدول والسحب الداكنة ، وهي تطير بعيدا إذ تقترب الشمس- كانت الشمس تدور على حواف السماء الرقيقة المائية كما تدور قطعة من الحلوى في كوب من الماء ، كان جائعا للنور بينما سقطت على شفتيه أولى قطرات المطر التي لا تكاد ترى . اقتطف الأعشاب وأحسها وهو يتذوقها ، تستقر خضراء على لسانه فقد كان النور في فمه ، كان النور صوتا في أذنيه ،

وملكوت النور كله في الوادي الذي كان له مثل هذا الاسم الغريب . كان يعرف تلال جرافيس ، كانت أشكالها ترتفع فوق منحدرات المقاطعة وتبدو للعيان على بعد أميال ولكنه ما من أحد قال له عن الوادي الممتد تحت التلال ، قال الأبله للوادي : بيت لحم . . . وهو يتذوق جرس الكلمة ويمنحها كل مجد هذا الصباح ويلز . كان يؤاخي العالم من حواليه ويترشف الهواء ، كما يترشف الطفل الوليد النور ويؤاخيه .

كانت حياة وادي جارفيس تعيره دما جديا وهي تتصاعد كالبخار من جسد الأعشاب والأشجار ويد الجدول الطويلة . كان الليل قد أفرغ شرايين الأبله فملأها الفجر في الوادي من جديد .

قال الأبله للوادي : بيت لحم .

لم يكن عند البستاني هدية للطفل فأخرج مفتاحا من جيبه وقال له : هذا مفتاح البرج ، في عشية عيد الميلاد سوف أفتح لك الباب .

وقبل أن يحل الظلام كان والطفل يرقيان السلم إلى البرج ، ودار المفتاح في القفل وانفتح الباب كغطاء صندوق سرّي ، وتلقاهما وهما يدخلان . كانت الغرفة خاوية ، أين الأسرار؟ والطفل يحدق إلى جذوع الخشب الملبدة في السقف وإلى أركان العنكبوت ، وفي ألواح الزجاج الرصاصية في النافذة .

قال البستاني : يكفي أنني أعطيتك المفتاح . كان البستاني يؤمن أن مفتاح الكون مخبوء في جيبه مع ريسن الطيور وبذور الأزهار .

أخذ الطفل يبكي لأنه لم تكن هناك أسرار ، وراح يستكشف الغرفة الخاوية مرة بعد مرة وهو يركل التراب فيثيره بقدميه باحثا عن باب خفي في الأرض لا

لون له ، ويدق على الحيطان العارية التي لا يكسوها خشب ويصيخ السمع إلى صوت أجوف قد يصدر عن غرفة أخرى في ما وراء البرج . أزاح شباك العنكبوت عن النافذة ونظر من خلال التراب إلى عشية عيد الميلاد التي يتساقط عليها الثلج . كان عالم من التلال يمتد بعيدا في السماء المحدودة الأبعاد ، وكانت قمم التلال التي لم يرها قط تصعد لتلتقي بندف الثلج المتساقطة كانت تمتد أمامه الغابات والصخر وبحار شاسعة من الأرض القفر وأمواج جديدة من مـدٍّ سماء الجبل تكتسح أشجار الزان السوداء . وإلى الشرق كانت هناك معالم مخلوقات التلال التي لا اسم لها ووكر من الأشجار .

من هم؟ من هم؟ .

قال البستاني الذي كان من البدء : تلال جارفيس .

وأخذ بيد الطفل وأفضى به بعيدا عن النافذة . ودار المفتاح في القفل .

في تلك الليلة نعم الطفل بنومٍ طيبٍ مريح . كان في الثلج والظلام قوة . كان في صمت النجوم موسيقى لا تحول ، كان في الرياح المسرعة صمت . وكان بيت لحم أقرب مما كان ينتظر .

في صبيحة عيد الميلاد مشى الأبله داخلاً إلى الحديقة ، كان شعره مبللاً ، وكان حذاؤه الرَّث الممزق غليظاً بوحل الغيطان ، كان متعبا من الرحلة الطويلة من تلال جارفيس وواهن القوى من حاجةٍ إلى الطعام ، فجلس تحت شجرة البيلسان حيث كان البستاني قد دحرج كتلة خشب . قبض إحدى يديه بالأخرى وهو يرى الدمار الذي حل بأحواض الأزهار والأعشاب التي تنمو وتتكاثر على حواف الممرات ، كان البرج يقف كشجرة من الحجر والزجاج

فوق الطنف الحمراء . شد ياقة معطفه حول عنقه إذ هبت رياح جديدة وضربت الشجرة ونظر إلى يديه ورأى أنهما تصليان ، وعندئذ أتاه خوف من الحديقة . كانت الشجيرات أعداءه والأشجار التي كانت تفسح بينها طريقا إلى البوابة رفعت أذرعها في هلع . كان هذا المكان عاليا جدا أعلى مما ينبغي يحدق إلى أسفل إلى التلال السامقة ، كان هذا المكان منخفضا جدا ، أخفض مما ينبغي .

هنا الرياح شرسة ضارية الشراسة ، تدمدم وتزمجر في الصمت ، ترفع صوتا يهوديا من أغصان البيلسان هنا الصمت ينبض ويدق كقلب إنساني . وبينما كان يجلس تحت التلال القاسية سمع صوتا من داخله يصرخ : لماذا أتيت إلى هنا؟ .

لم يستطع أن يجيب لماذا جاء ، قالوا له لن يأتي ، وأرشدوه لكنه لم يكن يعرف من هم . ارتفع صوت شعب من أحواض الأزهار في الحديقة وانقض المطر يهمي من السمار .

قال الأبله : دعني وشأني ، وأتي بحركة صغيرة تجاه السماء . هناك قطر على وجهي ، هناك رياح على خدي . كان يؤاخي المطر .

وعندئذ وجده الطفل تحت حمى الشجرة ، يتحمل عذاب الجو بصبر إلهي ، يترك الريح تهب بشعره كما تهوى ، وقد شخص فمه في ابتسامة حزينة .

من كان هذا الغريب؟ . كانت في عينيه نيران ، وكان لحم عنقه عاريا تحت معطفه المشدود . ومع ذلك فقد كان يبتسم ، في ثيابه الرثة المهلهلة ، تحت الشجرة في يوم عيد الميلاد .

سأله الطفل . . من أين تأتي؟ .

أجاب الأبله : من الشرق .

لم يكن البستاني كاذباً ، وكان سر البرج حقيقيا . كانت هذه الشجرة الداكنة الرثة التي لا تلمع إلا في الليل هي أولى الأشجار جميعا .

ولكنه سأل من جديد :

من أين تأتي؟ .

من تلال جارفيس .

قف بإزاء الشجرة .

فوقف الأبله ومازال يبتسم ، وظهره بإزاء شجرة البيلسان .

قد أراعيك هكذا .

فمدّ الأبله ذراعيه .

جرى الطفل بأسرع ما يستطيع إلى كوخ البستاني ، وبينما كان يعود جارياً على أرض الحديقة المعشوشية الموحلة رأى أن الأبله لم يتحرك بل كان يقف قائم العود ، وهو يبتسم وظهره إلى الشجرة ، وذراعاه مفتوحان .

دعني أربط يديك .

أحس الأبله وقع السلك الذي لم يصلح من شأن الجاروف ، وهو يشتد حول رسغيه يوثقهما ، كان السلك يقطع لحمه . وسقط الدم من الجراح وهو يلمع على الشجرة .

وقال : أخي .

ورأى أن الطفل يمسك في راحة يده بمسامير من فضة .

فريدريش دورينمات

•

ولد فريدريش دورينمات في ٥ يناير ١٩٢١ في قرية اسمها كونولفينجين ، بالقرب من عاصمة سويسرا الإدارية بيــرن ، درس الفلسفة والأدب واللاهوت في الجامعة ، واحترف الرسم فترة من الزمن ، وكتب مسرحيات لها شهرتها العالمية عرف منها «زيارة السيدة العجوز» التي مُثلت في مصر على المسرح وفي السينما ، وبني عليها فيلم أمريكي ذائع الصيت ، وما عُرِّب منها «رومولوس الأكبر» و«النيزك» و«علماء الطبيعة» وغيرها .واضح أنه في قصصه ـ وفي مسرحياته ـ لا يعني كثيرا بالالتزام الواقعي لظواهر الحياة اليومية ، وإن كان يتعمقها عن طريق فانتازيا خاصة به ، ليست مقاربة لفانتازيات كافكا ، وإن كانت مشابهة لها . وعلى حرصه البالغ في أن يسوق دقائق التفصيلات الملموسة إلا أنها تندرج في سياق استعاري (أو رمزي إذا شئت ، وربما الليجوري صريح أحيانا) يكسب هذه التفصيلات التي تبدو ثانوية وغير هامة دلالة أكثر تجاوزا .

النفـق

رجل في الرابعة والعشرين من عمره ، وقد كان بدينا ، حتى لا تقترب منه ، إلى أوثق مما يطيق ، البشاعة الكامنة التي كان بوسعه أن يراها وراء المشاهد (كانت تلك موهبته ، ولعلها موهبته الوحيدة) ، وكان يحب أن يسد الفتحات في جسده إذ أن البشاعات إنما يتسنى لها أن تنفذ إليه وتغرقه من خلال هذه الفتحات على وجه الدقة ، لذلك كان يدخن السيجار (اورموند ـ برازيل ١٠) ويضع على عينيه نظارات أخرى فوق نظاراته ، ونظارات للشمس ، وفي أذنيه ندف القطن ، هذا الشاب الذي كان أبواه لا يزالان يعولانه وكان يشتغل بدراسات ما غير واضحة المعالم في جامعة تبعد مسافة ساعتين بالقطار ، استقل القطار المعتاد ذات يوم أحد بعد الظهر ، قيام الساعة ٥ر٥ مساء ، وصول ٢٧ر٧ مساء ، حتى يشهد حلقة دراسية في اليوم التالي كان قد عقد العزم منذ الآن على ألا يحضرها .

كانت الشمس تسطع من سماء لا سُحبَ فيها عندما ترك بلدته . وكان الوقت صيفا . وفي هذا الجو اللطيف كان على القطار أن يشق طريقه بين جبال الألب والجورا ، عبر قرى مزدهرة وبلدان صغيرة ، ثم يمر بجانب نهر ، ثم يغوص القطار في نفق صغير بعد مسيرة لا تكاد تصل إلى عشرين دقيقة بعد «بيرجدورف» مباشرة . كان القطار مزدحما ، وكان الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما قد ركب من المقدمة ، وشق طريقه بصعوبة نحو المؤخرة ،

وقد تفصد عرقا وبدا مضحكا إلى حد ما . كان الركاب يجلسون متقاربين وثيقي القرب بعضهم من البعض ، والكثيرون منهم قد اقتعدوا حقائبهم ، وكانت عربات الدرجة الثانية مزدحمة ، بينما كانت عربة الدرجة الأولى خالية إلى حد ما . وبعد أن كافح الشاب حتى شق طريقه أخيرا ، من خلال زحمة العائلات والموظفين والطلبة والعشاق وهو يتعثر ، إذ يدفعه القطار ذات اليمين وذات اليسار ، فيسقط مرة على شخص هنا ومرة على شخص هناك ، ويترنح فيصطدم بالبطون والصدور ، إلى أن وجد مقعداً في آخر عربة بل وجد فسحة من مكان ، في الواقع ، أتاحت له أن يستأثر لنفسه بمقعد بأكمله في هذه المقصورة من الدرجة الثالثة (من الصعب عادة أن تجد مقاصير منفصلة في الدرجة الثالثة) . وفي الحيز المغلق كان ثمة شخص يجلس قبالته ، وقد كان أكثر بدانة منه ، يلعب الشطرنج مع نفسه ، وفي الركن على نفس الجانب ، بالقرب من الممر ، جلست فتاة صهباء الشعر تقرأ رواية . كان من ثم جالسا بالفعل بجانب النافذة ، وقد أشعل للتو سيجاراً أورموند ـ برازيل ١٠» ، عندما جاء النفق ، ولاح أنه قد استغرق من الوقت أطول من المعتاد . كان في الحقيقة قد اعتزم عدة مرات أن يوليه كل اهتمامه ، ولكن كلما أتى النفق كان يستغرق تفكيره شيء آخر ، في كل مرة ، فلم يحس قط بالوثبة القصيرة في الظلام ، إذ كان النفق يمضي بالفعل للتو عندما يرفع بصره وفي نيته أن يلاحظه ، لأن القطار كان يخترقه بسرعة بالغة ، ولأن النفق كان قصيرا للغاية . ومن ثم فإنه لم يكن قد نزع نظارات الشمس عندما دخلوا النفق ، إذ لم يكن يفكر فيه . كانت الشمس تسطع بملء قوتها ، والريف الذي يشق الطريق ربوعه ، والتلال والغابات وسلسلة جبال الجورا البعيدة ، وبيوت البلدة الصغيرة ، كانت كلها

مثل الذهب ، إذ كان كل شيء يومض في ضوء المساء ، بحدة بلغ منها أنه أحس فجأة بهجمة الظلام في النفق ، وهو بلا شك السبب فيما بدا له من أن عبوره استغرق وقتا أطول مما كان يظن ، كان الظلام مطبقا في المقصورة ، فلم تكن الأنوار قد أضيئت نظرا لقصر النفق . إذ أنه بمرور كل ثانية فلابد أن تتخايل أولى أشعة ضوء النار الشاحبة من النافذة ، ثم تنبثق بعنف في إشراق ذهبي مكتمل ، ولكن الظلام ما عتم سائدا ، لذلك خلع نظارته .

في تلك اللحظة أشعلت الفتاة سيجارة ، ومن الواضح أن صدرها قد ضاق إذ لم تستطع أن تكمل قراءة روايتها ، وقد كان باستطاعته أن يلحظ ذلك فيما كان يظن ، عندما توهج عود الكبريت بنور محمر ، وكانت ساعة يده بمينائها المضيئة تشير إلى السادسة وعشر دقائق . واستند بظهره في الركن بين حاجز المقصورة والنافذة وشغل نفسه بأمر دراساته المضطربة المختلطة المعالم التي لم يكن ثم أحد يصدقها فيما يتعلق به ، والحلقة الدراسية التي كان عليه أن يذهب لحضورها غدا والتي سوف يغيب عنها (كان كل ما يفعله تعلة للوصول إلى النظام وراء واجهة نشاطه ، لا النظام بذاته ، بل ما يشبه النظام ، أمام الفزع الذي يحشو جسمه ، إزاءه ، بالبدانة والسمنة ، ويحشر في فمه السيجار ، ويدفع في أذنه بندف القطن) . وعندما نظر إلى ساعته مرة أخرى كانت الساعة السادسة والربع ولا يزالون في النفق . وبهت . وكانت الأنوار قد أضيئت الآن ، هذا صحيح ، وسطعت المقصورة بالضوء ، وأصبح في وسع الفتاة الصهباء الشعر أن تواصل قراءة روايتها ، وكان الرجل البدين قد عاود لعب الشطرنج مع نفسه ، ولكن ، في الخارج ، في الجانب الآخر من زجاج النافذة الذي انعكست عليه المقصورة كلها الآن ، كان النفق لا يزال هناك . خطا إلى الممر حيث راح

رجل طويل يرتدي معطفا للمطر فاتح اللون يسير جيئة وذهابا ، وحول عنقه كوفية سوداء . ودار بفكره : «ما جدوى ذلك في مثل هذا الجو» ونظر إلى داخل المقاصير الأخرى في العربة حيث كان الناس يقرأون الصحف ويتبادلون الحديث . عاد إلى مقعده في الركن وجلس ، لابد أن ينتهي النفق الآن في أية دقيقة ، في أية ثانية ، كانت الساعة الآن في يده السادسة والثلث ، وضايقه أنه لم يكن قد أولى النفق إلا أدنى اهتمام من قبل ، لقد استغرق النفق حتى الآن ربع ساعة من الوقت في نهاية الأمر ، لابد أنه نفق هام ، من أطول الأنفاق في سويسرا ، عندما تضع في اعتبارك السرعة التي يسير بها القطار . ولعله من المحتمل إذن أنه قد استقل خطأ قطارا آخر ، حتى وإن لم يستطع الآن أن يتذكر أن هناك مثل هذا النفق الطويل الجدير بالاعتبار على مسافة عشرين دقيقة سفرا بالقطار من بلدته . ومن ثم سأل لاعب الشطرنج البدين عما إذا كان القطار متجها إلى زيوريخ فأيد له الرجل ذلك . وقال الشاب إنه لم يكن يعرف أن هناك مثل هذا النفق الطويل في هذا القسم من الطريق ، ولكن لاعب الشطرنج أجاب ، بشيء من الحنق ، فقد كانت هذه هي المرة الثانية التي يُقطع فيها عليه حسابٌ «صعبٌ» ما يديره في ذهنه ، إن هناك الكثير من الأنفاق في سويسرا ، إن هناك منها عددا خارقا للعادة . ومع التسليم بأن هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها هذه البلاد ، إلا أن ذلك يروعك ويبدهك لأول وهلة ، وأكثر من ذلك أنه كان قد قرأ في إحدى الإحصائيات أنه ما من بلد تكثر فيها الأنفاق مثل ما تكثر في سويسرا . ولكنه يرجو أن يستميحه معذرة الآن ، إنه في غاية الأسف ، لكنه مشغول بمشكلة هامة من مشاكل دفاع «نيمزوفيتش» في الشطرنج ، ولا يجوز أن يقطع عليه حبل أفكاره بعد . كان لاعب الشطرنج قد التزم جانب

الأدب في إجابته ، ولكنه كان حاسما ، ونهائيا ، وفهم الشاب أنه لن يجد عنده ردا . كان موقناً أن تذكرته لن تقبل منه ، وحتى عندما جاء الكمساري ، وهو رجل نحيل شاحب ، وقال بعصبية ، أو هكذا كان يبدو ، للفتاة قبالته ، وقد أخذ منها تذكرتها أولا ، إنها يجب أن تغير القطار في «أولتن» ، فإن الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما لم يفقد الأمل تماما ، فقد كان على أشد اليقين من أنه قد استقل خطأ قطاراً آخر . فقال دون أن ينحي السيجار الاورموند ـ برازيل ١٠ عن فمه إنه يظن أن عليه أن يدفع فرق التذكرة فالمفروض أنه مسافر إلى زيوريخ ، وسلم التذكرة للكمساري . فأجاب الأخير بعد أن فحص التذكرة : «أنت تستقل القطار الصحيح يا سيدي» . وهتف الشاب بحنق وقوة «ولكننا نمر من خلال نفق» . وقد حزم أمره تماما الآن أن يستوضح هذا الموقف المحير . وقال للكمساري : «مررنا للتو على «هرزوجينبر ونشي» ونقترب من «لانجنتال» . مضبوط يا سيدي ، الساعة الآن السادسة والثلث» . فأصر الشاب على موقفه : «ولكننا نمر خلال نفق منذ عشرين دقيقة» نظر إليه الكمساري نظرة خاوية وقال : «هذا قطار زيوريخ» ونظر بدوره من خلال النافذة وقال مرة أخرى وقد بدا عليه القلق : «الآن السادسة والثلث ، ويجب أن نبلغ أولتن» سريعا ، نصل ٣٧ر٦ مساء . لابد أن الجو قد ساء فجأة ، فجأة تماما ، هذا هو السبب في الظلام ربما كانت عاصفة ، نعم ، لابد أن هذا هو السبب» . فقطع الحديث الرجل الذي كان مشغولا بمشكلة من مشاكل دفاع «نيمزوفيتش» ، وقد ضايقه أنه كان لايزال يمد يده بالتذكرة دون أن يعيره الكمساري اهتماما : «كلام فارغ . نحن نمر خلال نفق . تستطيع أن ترى الصخر بوضوح تام ، وجرانيت فيما يبدو . هناك في سويسرا أنفاق أكثر من أي مكان في العالم .

قرأت ذلك في إحدى الإحصائيات» . وأخذ الكمساري تذكرة لاعب الشطرنج أخيرا وأكد له ، بما يوشك أن يكون تضرعا وتوسلا ، أن القطار متجه إلى زيوريخ . وعندئذ طلب الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما أن يقابل المفتش . فقال الكمساري إنه في مقدمة القطار ، وإن القطار يتجه إلى زيوريخ على أية حال ، وإن الساعة الآن ٢٥ر٦ ، وإنهم في اثنتى عشرة دقيقة حسب جدول المواعيد الصيفي سيصلون إلى «أولتن» وإنه يعمل على هذا القطار ثلاث مرات أسبوعيا . ٠

وبدأ الشاب يتحرك . ووجد الآن في السير خلال القطار المزدحم صعوبة أكبر مما وجد قبل ذلك بقليل عندما قطع المسافة في الاتجاه العكسي ، لابد أن القطار يسير بسرعة بالغة ، وكانت الضجة التي تصدر عنه ، من ذلك ، ضجة مروعة ، ومن ثم ثبت ندف القطن في أذنيه مرة ثانية ، بعد أن كان قد نزعها عندما استقل القطار . كان الناس الذين يمر بهم يلتزمون الهدوء ، لم يكن القطار بمختلف عن أي قطار آخر استقله في أيام الأحد بعد الظهر ، ولم يلاحظ أحدا يعتوره ثمَّ قلق . كان يقف إلى نافذة الممر في إحدى عربات الدرجة الثانية إنجليزي بغليونه الذي يدخنه ، على زجاج النافذة ، بسعادة . قال : «يا للساذج» . وفي عربة المطعم كان كل شيء يجري على وتيرته المألوفة ، وإن لم تكن هناك مقاعد شاغرة ، ومع ذلك فلابد أن أحد الركاب أو أحد الخدم الذين كانوا يقدمون «الفاينار شنيتزل» مع الأرز ، قد استرعى النفق انتباهه . ووجد الشاب المفتش ، وقد عرفه من حقيبته الحمراء ، عند الباب في نهاية عربة المطعم . وسأله المفتش ، وكان رجلا ضخم البنيان ، هادئا ، له شارب عني بتشذيبه ، ونظارة من غير إطار : «أي خدمة؟» . فقال الشاب «نحن نمر من

خلال نفق منذ خمس وعشرين دقيقة» . فلم ينظر المفتش نحو النافذة كما كان ينتظر الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما بل التفت إلى الخادم وقال : «أعطني علبة سيجار أورموند ١٠ ، أنا أدخن نفس الصنف الذي يدخنه هذا السيد» . لكن الخادم لم يكن بوسعه أن يلبي طلبه ، فلم يكن لديه هذا النوع من السيجار ، ومن ثم قدم له الشاب سيجارا ، وهو سعيد بأن يجد بينهما نقطة التقاء . فقال المفتش : «أشكرك . . لن يتاح لي الوقت أن أشتري سيجارا في «أولتن» ، فأنت تسديني خدمة كبيرة ، التدخين أمر مهم . هل تسمح الآن بأن تتبعني؟» ومضى بالشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما إلى غرفة العفش التي كانت تقع أمام عربة المطعم ، وقال المفتش وهما يدخلان عربة العفش : «بعد ذلك تأتي عربة القاطرة ، نحن في مقدمة القطار» ، كان في عربة العفش نور واهن أصفر ، وكان معظم العربة يقع في العتمة والأبواب الجانبية موصدة ولا تنفذ ظلمة النفق إليها إلا من خلال شبكة حديدية على نافذة صغيرة . وكانت الحقائب ملقاة حواليهما ، يحمل الكثير منها بطاقات الفنادق ، ويضع دراجات ، وعربة أطفال . علّق المفتش حقيبته الحمراء على مشجب وقال مرة أخرى «أي خدمة؟» وإن لم ينظر إلى الشاب بل أخذ يسدّد خانات الجداول في دفتر صغير أخرجه من حقيبته . قال الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما ، بحسم : «إننا نمر من خلال نفق ، منذ «بيرجدورف» . وليس هناك مثل هذا النفق الكبير في هذا الجزء من الخط . فأنا أسافر عليه ذهابا وإيابا كل أسبوع وأنا أعرف الطريق» . فاستمر المفتش يكتب ، وقال أخيرا : «سيـــدي» واقترب يخطو نحو الشاب ، حتى أوشك جسماهما أن يتلامسا : «سيدي ، ليس باستطاعتي أن أقول لك شيئا كثيرا . كيف دخلنا النفق ، لست أدري ، لا

أستطيع أن أعطيك تفسيرا لذلك . ولكنني أرجو منك أن تفكر في أننا نسير على قضبان حديدية ومن ثم فإن النفق لابد متجه إلى مكان ما . ليس هناك دليل على أن ثم خطأ ما بشأن النفق ، فيما عدا أنه يستمر ويستمر ، بالطبع» .
كان المفتش ، ولايزال السيجار «الأرموند ـ برازيل ۱۰» بين شفتيه لم يشعله ، قد تكلم بغاية الهدوء ولكن بعزة ووضوح وقطع ، حتى كانت كلماته مسموعة مع أن ضجة القطار في عربة العفش كانت أعلى بكثير منها في عربة المطعم .
قال الشاب بنفاد صبر : «إذن فاسمح لي أن أطلب منك إيقاف القطار ، إنني لا أفهم كلمة واحدة مما تقول . إذا كان ثم خطأ ما في هذا النفق الذي لا تستطيع أنت نفسك أن تفسر وجوده ،فينبغي أن توقف القطار» . فأجاب الرجل الآخر ببطء : «أوقف القطار؟» كان قد فكر في ذلك بالتأكيد ـ ثم أغلق الدفتر وأعاده إلى الحقيبة الحمراء التي كانت تتأرجح من المشجب ذات اليمين وذات اليسار ، ثم أشعل سيجارة الاورموند بعناية . وسأله الشاب عما إذا كان له أن يجذب فرامل الطوارىء؟ وهمَّ بأن يمد يده نحو جهاز الفرملة ، فوق رأسه ، ولكنه ترنح وتعثر إلى الأمام في ذات اللحظة ، واندفع يصطدم اصطداما عنيفا بجدار العربة . وتدحرجت نحوه عربة أطفال ، وانزلقت إحدى الحقائب ، وأقبل المفتش أيضا في وسط عربة العفش ، يهتز اهتزازا غريبا ويداه ممدودتان . قال المفتش : «إننا نهبط» واستند ، بجانب الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما ، إلى الجدار الأمامي للعربة ، ولكن الصدمة المتوقعة إذ يندفع القطار فيرتطم بالصخر ، والحطام المتناثر ، وتداخل العربات متشابكة إحداها في جوف الأخرى ، لم يحدث شيء من ذلك ، بل بدا كأن النفق عاد يجري على سننه الممهد . وانفتح الباب في الطرف الآخر من العربة . وفي الضوء الباهر

المتلألىء الذي كان يغمر عربة المطعم كان بوسعك أن ترى الناس يشربون أنخاب بعضهم البعض ، ثم أغلق الباب مرة أخرى . قال المفتش : «تعال إلى عربة القاطرة» . ثم نظر متفكرا إلى الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما ، في وجهه ، ثم فتح الباب الذي كانا يستندان بجواره إلى الجدار . إلا أن تيارا ساخنا أقرب إلى العاصفة كان يلفحهما لفحا من العنف بلغ معه أن قوة الإعصار دفعت بهما إلى أن يتعثرا فيترنحا مرتدين إلى الجدار ، وفي نفس الوقت ملأ عربة العفش ضجيج مخيف . صاح المفتش في أذن الشاب بصوت لا يكاد أن يسمع : «هذه المرة علينا أن نتسلق القاطرة» . ثم اختفى في الزاوية اليمنى من الباب المفتوح الذي تبدو منه نوافذ القاطرة ساطعة الضوء ، وهي تهتز من جانب إلى جانب . كان الحيز المنبسط الذي خطا إليه الشاب يحتاط به حاجز حديدي من كلا الجانبين ، وتشبث بالحاجز ، على أن الشيء الذي كان يبعث الفزع لم يكن ذلك التيار الرهيب من الهواء الذي قل عنفه إذ كان يقترب من القاطرة ، وإنما ذلك القرب المباشر من جدران النفق التي لم يكن يستطيع أن يراها ، هذا صحيح ، إذ كان عليه أن يركز اهتمامه كله على القاطرة ، بل كان يحسها ، وإن كانت توجه حتى أعماقه دقات العجلات وصفير الهواء حتى أحس كأنه يندفع بسرعة فلكية في قلب عالم من الحجر .

كانت تمتد على طول جانب القاطرة رقعة مستطيلة ضيقة ، وفوقها قضيب معدني يتخذ حاجزا ويدور حول القاطرة ، على ارتفاع ثابت من الرقعة المستطيلة ، لابد أن يكون هذا هو الطريق ، وحسب حساب الوثبة التي سيكون عليه أن يقوم بها ، فإذا هي بالضبط أكثر قليلا من ياردة واحدة . وعلى هذا النحو تمكن من أن يقفز فيمسك بالقضيب المعدني . وضغط نفسه ملتصقا

بجسم القاطرة ، ودفع نفسه على طول الرقعة المستطيلة ، وأصبح الطريق مفزعا حقا عندما وصل إلى الجانب المستطيل من القاطرة وأمسى معرضا الآن لضراوة الإعصار الثائر المنطلق ولجبهة الصخر الممتدة التي أضاءتها القاطرة بضوء ساطع وراحت تندفع إليه تكاد تمسه . ولم ينقذه إلا أن المفتش دفع به من خلال باب صغير إلى داخل القاطرة . استند الشاب ، مستنفد القوى ، إلى غرفة الآلات ، وعندئذ ساد السكوت مرة واحدة ، إذ أن المفتش أغلق الباب فكتمت الضجيج جدران القاطرة العملاقة المتخذة من الصلب ، حتى أوشك ألا يعود مسموعا . قال المفتش : «وضاع منا الأورموند ـ برازيل ١٠ أيضا . لم تكن بالفكرة النيرة أن نشعل السيجار قبل هذه الهرولة ، ولكنها سريعة إلى الانكسار بشكلها المتطاول ، إذا لم يكن معك علبة» . كان الشاب سعيدا ، بعد أن كانت جبهة الصخر قريبة منه قرباً منذرا ، بأن يتجه ذهنه إلى شيء يذكره بمجرى الأمور اليومي العادي السوي الذي كانت حياته تجري عليه حتى أقل من نصف ساعة مضت ، كل هذه الأيام والسنوات نفسها (نفسها لأنه إنما كان يعيش من أجل لحظة الانفصال هذه ، هذا النزول المفاجيء عن سطح الأرض ، هذا السقوط الغريب في داخل الأرض) . وأخذ علبة من العلب البنية اللون من جيب سترته الأيمن وقدم للمفتش سيجاراً آخر ، ووضع سيجارا في فمه أيضا ، وأشعلا السيجارين بحرص من عود الكبريت الذي أشعله المفتش . قال المفتش : «إنني أحب سيجار الأورموند هذا كثيرا . إلا أنه عليك أن تشد النفس منها بقوة حتى لا تنطفيء» . كلمات حملت الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما على الشك ، لأنه أحس أن المفتش أيضا لم يكن يحب التفكير في أمر النفق الذي كان لايزال يجري بهما في الخارج (كانت لاتزال هناك الإمكانية أن يقف فجأة ،

كما يمكن للحلم أن يقف فجأة) وقال : «٤٠ر٦» . وهو ينظر إلى ميناء ساعته المضيئة .

«كان ينبغي أن نكون في «أولتن» الآن بعد كل شيء» . وفكر في التلال والغابات التي كانت هناك فترة وجيزة ، من قبل وقد تراكم فوقها الذهب من الشمس الغاربة . وعلى هذا النحو كانا يقفان ويدخنان ، مستندين إلى جدار غرفة الآلات . قال المفتش وهو ينفث دخان سيجارة : «اسمي كيلر» . ولكن الشاب لم يكن ليُصرف به عن عزمه ، فقال : «هذا التشبث للتسلق إلى القاطرة لم يكن يخلو من خطر ، بالنسبة لي على الأقل ، فلست معتادا على مثل ذلك ، ولذلك أحب أن أعرف لماذا أتيت بي إلى هنا» فأجاب كيلر إنه لا يدري ، إنما أراد أن يكسب وقتا يقلّب فيه الأمور على وجوهها . فردد الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما : «وقتا تقلب فيه الأمور على وجوهها؟» قال المفتش : «نعــم . ذلك ما حدث» . واستأنف يدخن السيجار . وبدا أن القاطرة تنثني إلى الأمام مرة أخرى . وقال كيلر : «يحسن بنا على أي حال أن ندخل إلى قمرة السائق» وإن ظل واقفا ، متراوح العزم ، إلى جانب القاطرة ، وعندئذ راح الشاب يقطع الممر . وعندما فتح باب غرفة السائق ، وقف بلا حراك . وقال للمفتش الذي أقبل بدوره : «إنها خالية ، قمرة السائق خالية» . ودخلا إلى الحيز المهتز بالسرعة الهائلة التي كانت القاطرة تمضي بها تندفع خلال النفق ، وتجر خلفها القطار . قال المفتش : «اسمح لي» وضغط بضع روافع إلى أسفل ، وجذب فرملة الطوارىء أيضا . لم تستجب القاطرة وأكد له كيلر أنهم قد فعلوا كل شيء لإيقافها ، بمجرد أن لاحظوا تغير الطريق ، ولكن القاطرة مضت تنطلق إلى الأمام بالرغم من ذلك ، وأجاب الشاب البالغ من العمر أربعة

وعشرين عاما : «سوف تمضي إلى الأمام بالرغم من كل شيء» . وأشار إلى مقياس السرعة . وقال : «٩٤ ميلا في الساعة . هل وصلت القاطرة إلى ٩٤ ميلا في الساعة من قبل؟» . قال المفتش : «يا إلهي ، لم تصل قط إلى هذه السرعة . سبعين على الأكثر» . قال الشاب : «أترى؟ السرعة تزداد . الإبرة تشير الآن إلى مائة . إننا نسقط» . وخطا خطوة إلى النافذة ، لكنه لم يستطع أن يقف على ساقيه ، وإنما كان وجهه مضغوطا إلى الزجاج . كانت السرعة الآن خارقة للعادة إلى حد هائل . وصاح : «ماذا حدث للسائق؟» . وراح يحدق في كتل الصخر التي كانت تندفع إلى الضوء الساطع المنبعث من المصابيح الأمامية وتختفي ، فوقه وتحته ، وإلى جانبي غرفة السائق . فرد عليه كيلر صائحا : «وثب من القطار ! . كان الآن جالسا على الأرض ، وظهره إلى لوحة المفاتيح . وسأل الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما ، بعناد : «متى؟» تردد المفتش قليلا واضطر إلى إشعال سيجارة الاورموند ثانية ، وكانت ساقاه الآن في مستوى رأسه إذ كان القطار قد اتخذ انحدارا أكثر ميلاً إلى أسفل ، ثم قال : «بعد الدقائق الخمس الأولى . لم يكن هناك من معنى لمحاولة إنقاذه» . وقد وثب الرجل الذي كان في غرفة العفش أيضا . سأل الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما :

«وأنت؟» . فأجاب الرجل الآخر : «أنا المفتش ، وأكثر من ذلك فقد عشت أيضا من غير أمل» . أجاب الشاب : «من غير أمل» كان الآن راقدا فوق النافذة ، من مكان السائق ، وجهه مضغوط على الزجاج فوق الهوة العميقة . ودار بفكره : «وهنالك كنا نجلس في مقصورتنا ، ولم نكن نعرف أن كل شيء كان قد ضاع بالفعل . حتى ذلك الحين لم يكن قد تغير شيء ، فيما كان يبدو

لنا ، ولكن الحفرة كانت قد انفتحت بالفعل لتأخذنا إلى الأعماق ، وهكذا كنا نندفع بجنون إلى قاع هوتنا» . وصاح المفتش أنه يجب أن يعود الآن : «لابد أن الرعب قد أخذ من الركاب في العربات كل مأخذ . ولابد أن الجميع يتدافعون نحو مؤخرة القطار» . فأجاب الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما : «بالطبع» . وفكر في لاعب الشطرنج البدين والفتاة وروايتها وشعرها الأصهب . وقدم للمفتش بقية علب الاورموند ـ برازيل ١٠ وقال : «خذها . سوف يضيع منك السيجار الذي أشعلته بعد كل شيء ، عندما تتسلق القاطرة راجعا» . سأله المفتش عما إذا لم يكن ينوي الرجوع؟ . وهو ينهض ويأخذ في الزحف بصعوبة ، إلى الممر . نظر الشاب إلى العدد والآلات التي لم يكن لها معنى ، هذه الروافع والمفاتيح المثيرة للسخرية التي تحيط به ، فضية اللون في ضوء القمر الباهر . وقال : «١٣٠ ميلا في الساعة ، لا أعتقد أنك سوف تستطيع أن تعود إلى العربات في الخلف ، على هذه السرعة» . فصاح المفتش : «هذا واجبي» . وأجاب الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما : «بالطبع» دون أن يدير وجهه ليرى هذا العمل الذي لا معنى له من جانب المفتش . صاح المفتش مرة أخرى : «عليَّ أن أحاول ، على الأقل» . وقد ارتفع الآن بعيدا في الممر ، وهو يمسك نفسه بإزاء الجدران المعدنية ، بمرفقيه وفخذيه ، ولكن القاطرة كانت لاتزال تندفع إلى أسفل ، تتدهور في سقوط رهيب نحو داخل الأرض ، هدف كل الأشياء ، حتى لقد كان المفتش ، وهو في الممر ، معلقاً مباشرة فوق الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما ، وقد رقد هذا الأخير على أرض القاطرة ، على النافذة الفضية في قمرة السائق ، وجهه ميمما إلى أسفل ، فخذلت المفتش قوته ، وسقط في دفعة مفاجئة إلى أسفل ، واصطدم بلوحة

المفاتيح ، وانحط ، والدم يتدفق منه ، بجانب الشاب ، وتشبث بكتفيه . صاح المفتش بإزاء الضجيج الهادر المنطلق من جدران النفق التي كانت تندفع إليهما ، في أذن الشاب البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما ، وقد كان هذا مضطجعا بجسمه البدين الذي لم تعد له جدوى ، الآن ، ولم تعد فيه وقاية ، بلا حراك ، على زجاج النافذة التي تفصله عن الهوة ، يشرئب ، خلال الزجاج ، من الهوة ، بعينيه اللتين كانتا الآن ، لأول مرة ، مفتوحتين على سعتهما : «ماذا سنفعل الآن؟» .

قال الآخر بلا رحمة : «لا شيء» دون أن يدير وجهه عن المشهد المميت وإن كان قد قالها وهو لا يفتقر إلى استبشارٍ جهمٍ صلب ، وانتثرت فوقه من كل مكان شظايا الزجاج من لوحة المفاتيح المتحطمة ، بينما دخل تيارٌ من الهواء فجأة فانتزع قطعتين من ندف القطن (ظهر أول شرخ في زجاج النافذة) واكتسحهما بسرعة السهم إلى الفتحة الواقعة فوقهما : «لا شيء . إن الله قد تركنا نسقط ، ومن ثم فنحن نندفع إلى أسفل ، نحوه» .

هيربـرت ايزانرايش

●

في ١٩٦١ عندما قرأت هذه القصة الجميلة ، وترجمتها بعد ذلك للبرنامج الثاني للإذاعة المصرية ، لم أكن أعرف عن هيربرت ايزنرايش شيئا إلا أنه كان مما سمى ، عندئذ ، حركة الكتاب الجدد في المانيا ، بعد جيل الكبار من أمثال توماس مان ، وتومس زفايج ، وأضرابهما . وما زلت لا أعرف عنه إلا أنه ولد في النمسا في ١٩٢٥ . ولكن هذه القصة إذ تمزج بين واقعية دقيقة تلحظ بعين صاحية تفصيلات الخارج كما ترصد بأصابع مرهفة خلجات الداخل ، تضع مقابلا استعاريا للحياة في مدينة غربية بعد الحرب ، هو عالم الحيوانات المحبوسة في أقفاصها ، لا تكاد تعرف سبيلا للخلاص . ومن غير ضغوط «شعرية» - إذا صح التعبير - فإن الوحشة في المدينة تصبح هي نفسها وحش محبوس ، لكنه يتثاءب ، من غير مبالاة ، كأن قسوة الوحدة نفسها شيء ممثل .

أبـريل فـي مـايـو

عندما سقط المطر فجأة ، يصطفق ويقرقع ، في صلابة ألواح الخشب ، راحا يحتميان منه في «بيت النخيل» ، وهو لا يبعد عن باب المتنزه بأكثر من خمسمائة ياردة . لم يكن يشغلهما شيء بعد ظهر ذلك اليوم ، وكان ينبغي أن يتخذا حيطتهما من قبل ، لا لأنهما قد استمعا إلى نشرة الأخبار الجوية فحسب ، بينما كان هو يزدرد حساءه في عجلة ، وبينما كانت هي تقطع فطائرها الصغيرة ، بل لأنهما ، كلاهما ، قد ألقيا بنظرة إلى الجو من خلال النافذة . ذلك أن هذا اليوم الرصاصي الأزرق كان يسرّ ، في جهامة وعبوس ، تهديدا بالعاصفة ، تهديدا واضحا للعيان في سمت السماء الزجاجية التي تضرب إلى لون اللبن ، وفي ركام من السحب تتعلق ، بتوازن قلق يشفى على الانهيار على حافة الأفق الرازح الثقيل ، ومازالت السحب حتى الآن أكواما محتشدة متراكبة مكبوحة الجماح بعد ، ولكنها على أهبة الانطلاق كحقيقة مدمرة .

إلا أنهما ، على الرغم من ذلك ، خرجا بعد الغداء مباشرة ، أسوة بيوم الأحد السابق ، عندما التقيا ، وحسب ما استقر عليه الاتفاق بينهما ، فيما كانا يمضغان الكعك :

«حذار لنفسك إذا لم تأت . . !» .

«ولم لا آتي؟» .

«طيـب . . .»

ذلك أنه على الرغم من أن التقاءهما لأول مرة جاء على سبيل الصدفة ، كما جاء التقاؤهما لثاني مرة صدفة أيضا ، على غرابة ذلك ، إلا أنهما التقيا بعد ذلك عدة مرات على سابق إعداد واتفاق .

التقيا في محطة الترام ، ودفع لها تذكرة الترام وتذكرة حديقة الحيوانات حيث كان الزوار ، ولم يكونوا جميعا من السياح ، يحتشدون من قفص إلى قفص ، يقفون أمام القرود ، والثعابين ، ويتجمعون في جماعات منعقدة أمام أقفاص القطط الضخام ، ثم يتشتتون في الغابات ، وهي أكثر انفساحا وبراحا ، على سفوح التل ، ثم يسيرون الهويني في كل اتجاه كأنما هم في حدائق بيوتهم .

وتساءل ، كأنما يسأل نفسه أكثر مما يتجه إلى زميلته : «ما الذي يجده الناس إذ يذهبون وينظرون إلى الحيوانات؟» ولكنها أجابت بسرعة : «لأنها حلوة لطيفة جدا . . انظر ، انظر هناك !» .

كانا محصورين بين غيرهما من المشاهدين ، يقفان أمام قفص الأسود الواسع حيث كانت ترقد الحيوانات الأربع الفتية ، على منصة مرتفعة في آخر القفص ، أمام الباب المغلق ، بلونه الصدىء الضارب إلى الاحمرار ، المتآكل من الحمض ، المفضي إلى الجانب الشتوي من القفص . وكانت الأسود الأربعة ترقد ونصفها في الظل الضنين الذي يلقيه الحائط المتين وراءها ، على أرض القفص الذي تحيط به القضبان الحديدية . لم تكن الأسود الأربعة في حجم كلاب الرعاة إذ تبلغ عنفوانها ، وإن كان من الواضح أنها تختلف عنها اختلافا

بينا ، في خطورتها التي لم تروض ، وقد رقد الأبوان بين أشبالهما ، ثم نهضت اللبؤة التي يغلب عليها النعاس . ودار بخاطره «إنها حلوة لطيفة جدا !» وكان ، في الوقت نفسه يفكر في الثعبان الذي انزلق الفأر الأبيض الصغير إلى داخل بيته الزجاجي المزدوج الجدران ، والفأر بعد لا تساوره ريبة ما ، ولكنه قد أسر بالفعل منذ الآن في سجن اليقين الذي يبعث على الغثيان ، بأنه ليس مقدورا له إلا أن يصبح طعاما ، طعاما للثعبان ، على الرغم من التأخير والتمهل الذي يضمنه له هذا الصبر الشبعان من جانب الثعبان . أما الثعبان نفسه فقد كان نصفه ملتفا حول القاعدة الصخرية في مسكنه ، ونصفه في الحوض الرصاصي المركب في القاعدة وقد امتلأ بالماء حتى حافته تقريبا بعد أن ارتفعت المياه عندما غاص فيها جسد الثعبان ، وما زال بلا حراك ، لم يتغير ، كأنه لم يلحظ حتى الآن عملية الغذاء ، ولا موضوع الغذاء نفسه ، وقد رقد هناك بلا مقاومة كأنه قطعة من الطبيعة لا حياة فيها وليس من مخلوقاتها الحية .

اقتربت اللبؤة من الأسد الذي كان مغفيا وهو متمدد في الشمس ، وتركت نفسها تنزلق إلى الأرض بحركة بلغ من دقتها وضبطها أن استيقظ الأسد إذ مس فمها فمه ، وهي تسقط . وترجم يقظته إلى حركة واحدة من جسمه والتف بجسمه بسرعة وكأنما لا وزن له ، وإذا هو يقف عليها الآن إذ ترقد بملء جسمها على الأرض وراح يلعق فمها .

««انظر . . انظر الآن !» . .

. .وكان ينظر ، ولكنه مع ذلك كان مازال يحس أسر القهر الذي كان يبدو كأنما ينبعث عن الأرض نفسها ، وقد سمره وثبت وقفته أمام بيت الثعبان ، وأبقاه ينتظر هناك ، وقد أفرغت ذاته ، كأنه لعبة متأرجحة في قاعدتها مركز

متغير للثقل . ولولا أن الفتاة قد جذبته جذبا إلى قفص الأسُود القريب ، وهي ترفض هذه البشاعة الكريهة بهزة من رأسها ، كأنها تحرر حشرة من جحر ، لبقي هناك حتى الآن ينتظر . . . ينتظر الحدث الذي كان محتوما ، ومتصورا في الوقت نفسه ، وعلى وجه الدقة والضبط : اللدغة المميتة من أنياب الثعبان تأتي عقب ارتفاعه بالجزء الأمامي من نفسه والانثناء به مرتين . كان ينتظر اللحظة التي يتجمد فيها الفأر الأبيض الصغير بلا حراك ، في خوف الموت ، أو لعله كان ينتظر محاولته الوجيزة للهرب إذ ينكص مرتدا على الجدار الزجاجي ، تسويف أخير ، لا معنى له ، للنهاية التي تجري مجراها بالفعل ، أو كان لينتظر : على أي حال ، اللحظة التي سيكون عليه فيها أن تتهيأ في وعيه فكرة فرصة للخلاص ـ إذا لم يصبه الغثيان ـ ثم في اللحظة التي يقذف فيها بعيدا ، بلا رجعة ، بفكرة حقيقة هذه الفرصة ، أي فرصة التفادي مما لا حول عنه ، بطريقة لا تفسير لها حقا ، بشكل معجز بكل بساطة .

الأسد يسير الهويني منتصف المسافة حول اللبؤة ، بخطى لم يعد محسوسا فيها بالحركة إلا في تمامها وفي نتيجتها . ثم هبط برأسه العريض العرف وأتاح للسانه أن يداعب جسمها برقة ، هذا الجسم الذي كان ، منذ وقت مازال مذكورا بلا شك ، قد أتى بالصغار الراقدين في مؤخرة عالمهم الذي يحيط به القفص في النور المخطط بظلال القضبان ، ومن بيت القردة المجاورة ترددت أصداء الصرخات المختلطة من المشاهدين المندهشين والقرود التي تدهشهم ، ولكن المشاهدين هنا كانوا يلتزمون الصمت ، وقد أوشكوا أن يحبسوا أنفاسهم طالما استمرت الملاطفة الحسية تجري مجراها ، وقد أتاحوا لإحساسهم بالطيب والرفاهية أن يتدفق ويفيض على أجسامهم في بعد واحد لا يكسره شيء .

همست الفتاة وقد نسيت نفسها : «انظر !» ولكن الصوت ردها إلى الوعي ، فعضت لسانها وهي تغلق فمها ، ثم حاولت بعد ذلك أن تحثه على المضي إلى أبعد ، وهي تجذبه من ذراعه .

لكنه لم يلحظ شيئا في وسط الازدحام العنيد والتدافع ، وكان يفكر في أن الرائحة ، فوق كل شيء ، كانت لتكفي لأن توضح للفأر الصغير موقفه ، وكان يعجب للاهتمام المحموم الذي يذكر المرء بسائح قد افترق عن رفقاء سفره ، الاهتمام الذي كان يبديه الفأر ـ ومازال طليقا بعد لم يمسك به ـ وهو يتكشف الظروف الجديدة التي وضع فيها ، عند ساعة الغذاء المحددة ، ويستعرضها ، ويسجلها في وعيه الصغير الدقيق ، في خطوط متعرجة تتفاوت انثناءاتها باستمرار . ودار بفكره : «ولكنه يعرف بالتأكيد كل المعرفة ، وإذا لم يكن يعرف ، على وجه الدقة ، فإنه يستطيع أن يشم الخطر» .

وفي هذه الأثناء استدار الأسد برأسه من جديد وأتاح للسانه أن يدور ، في رقة ، حتى يقترب أكثر فأكثر من وسط جسمها المستتر ، وسمع المشاهدون يقولون وهم يبتعدون : «اقترب منها أكثر مما ينبغي» ، واستدارت اللبؤة بسرعة ، وبنظرة تحذير أطلقت زئيرا قصيرا ولكن أحدا لا يمكن أن يخطىء معناه ، كما اتضح ذلك للجميع من رد الأسد الذي وجه إليه الزئير ، فقد ابتعد عنها فورا ، وراح يتجه بخطى متمهلة إلى مقر راحته حيث انزلق إلى الأرض بحركة هبوط واضحة للعيان ولكنها غير مسموعة ، بشكل يثير الدهشة ، ومد إحدى ساقيه الخلفيتين ، وأغمض عينيه . وهبطت اللبؤة أيضا فاتخذت وضع راحتها واستقرارها ، بينما كانت الأشبال تفتح عيونها وتغمضها ، بكسل وفي ميل ، في الشمس التي كان يبدو أن حرارتها تملأ القفص بقشرة شفافة تمتد مرنة

وخشنة ، فوق كل حياة تحتها تضغطها إلى أقل حيز ممكن . كان الناس يتشتتون الآن ، ينسابون متباعدين عن أحدهم الآخر كأنما بلا هدف ، لا يتجهون إلى مكان بعينه بقدر ما هم يبتعدون من هنا . وذهبا ، كلاهما ، أيضا .

كانت صامتة ، وكان يفكر في الفأر الأبيض الصغير . كان يفهم موقفه حق الفهم وأنه إنما تقبل عالمه الجديد في غير خوف ، بهذا الشكل ، وهو يتواثب فيه ، حتى يحمل الثعبان على أن يألف وجوده ، ويحمله على نسيان السبب في وجوده ، وذلك ، في الواقع ، حتى يتخذ طريقه ، بهذه المناورة ، إلى موقف أفضل من الناحية المعنوية ، أو لعله موقف منيع من الناحية المعنوية ، لا يمكن المساس به . ودار بذهنه : «نعم ، هذا هو الوضع : إنه يدفع نفسه فوق موقفه المستيئس الذي لا أمل فيه ، بأن يمارس هذا الوضع الذي يجد نفسه معتقلا فيه ، وهو وضع ، غير طبيعي بالمرة ، يمارسه ويفسره على اعتبار أنه الوضع العادي السوي» . كان يفكر في شيء من هذا القبيل . ولو كان ذلك بكلمات مغايرة وفي معالم أقل تحديدا ـ دون أن يدرك حقا في نفس الوقت أن ذلك إنما هو العقل الذي يقاتل إلى جانب الضعفاء وينحاز لنصرة قضيتهم كأنما هي قضيته هو نفسه ، وبذلك يجعلها القضية الأسمى .

ومن ثم فقد ابتعدا عن قفص الأسود ، وراحا ينظران هنا وهناك : القنادس تلعب مع بعضها بعضا ، والجمال تقف في تكاسل ، ويرها يبدو كأنما العثة قد أخذت منه بنصيب طيب ، والببغاوات تتشبث بمخالبها بأعلى حلقات القضبان ، وصرخاتها التي تمزق الآذان تدوي أصداؤها وترتد عن الجدار كأنها كرة . كل ذلك كان يحملهما على نسيان تلك السحب البيضاء ، التي جاءت من وراء ركام السحب الأخرى فوق الأفق ، وتدحرجت معا كأنها تغلي ،

وأخذ لونها يدكن ويزداد قتامة كأنما هي في داخل انفجار ، وقذفت بنفسها على ركام السحب ، ودفعته أمامها ، تحتك بالأرض في دخان وضجيج كأنما فلك السماء ينهار ويتفتت . وراحت فرق من السحاب ترتطم ببعضها بعضا وتسقط في شظايا متناثرة ، إلى الأرض .

وكانا في داخل «بيت النخيل» الذي ألفياه في طريقهما يمدهما بالحماية ، عندما اكتسحت طرقات الحديقة أولى جحافل المطر المتضمخة بالتراب ، يسمعان قرقعة العاصفة في الخارج وهزيمها وخبطاتها تستحيل إلى خشخشة ودق كأنه قرع الطبل المنتظم . الزجاج حواليهما في كل مكان ، النباتات مروضة ، ويبدو لهما ، وهما في الداخل ، أن كل ما يحدث في الخارج أروع هولا عن ذي قبل .

كان الجو هنا يتكون من القوى التي تعصف في الخارج : نفس القوة التي تسبب الرعد والبرق كانت هنا تستتر في جهامة وعبوس ، خاملة غمرا ، على شكل أزهار الأوركيد التي تزدهر هنا وهناك في وسط وحدة اللون الخضراء المعتمة الكابية . وعندما طال بقاؤهما احتبست أنفاسهما ، كانت رئتاهما كالمنفاخ المتضخم الممتلىء بأنفاس الزفير من الداخل ، ويشتد عليهما الضغط ، من الخارج ، من الهواء الخشن المتماسك الوثيق القوام ، تماما كأوراق هذه النباتات الأجنبية التي غصَّت بها القاعة حتى السقف ، نباتات خدعت عن حقها بما فرض عليها من إعادة للغراس في أرض غريبة ، فوقفت مكتئبة مستوحشة في عصارتها المستنفدة عنها . كان ذلك هواء يمكن أن تقضمه ، لا أن تبتلعه ، تقضمه فقط وتمضغه وتعيد مضغه ، مملكة لا نهاية لمرونتها في الحلق المتقبض المشدود ، كأنما ينقضي في القضم ، وتكسير الأسنان ، دون كسر بندقة

واحدة مع ذلك . . . ! .

ولم يلحظا إلا أخيرا أنهما هنا وحدهما ، عندما كان كل من لاذ ببيت النخيل مثلهما قد خرج ، إذ بدت في السماء ، وإن ما زالت مغيمة قاتمة بالتأكيد ، أمارات على تبدد السحاب . خرجا وهما يغوصان في الطين ، ويشربان شهيقا خالصا من الهواء الأكثر سيولة الذي انطلقا إليه ، وكان طعم الهواء كمذاق الماء الفاتر الآسن . ووجدا نفسيهما ، بعد قليل ، في غابة مجاورة ما تزال قطرات المطر تسقط من أغصانها . وكانت جداول المياه تندفع بلونها البني ، وفي أعلى مياهها رذاذ الزبد البنّي اللون ، وخيوط منعزلة من الماء تنساب إلى أسفل عبر أسفلت الطرقات التي سقطت عليها نثارات من الطين هنا وهناك . وما أن أفضت بهما خطواتهما ، على غير هدى ، إلى الممرات الجانبية المتلوية ، حتى راحت الرمال المبلولة تخشخش تحت أقدامهما ، ورأيا الفجوات الدقيقة التي حفرتها فيها قطرات المطر تتماس حوافها ، وعليها آثار زحف القواقع ، اللامعة المشعة ، بينما الأغصان التي أثقلها البلل تنحني حتى مستوى الركبتين في طريقهما . كان يملأ الغابة صوت مكتوم حتى أدنى طبقاته انخفاضا : ثرثرة ولغط بألف لسان ، تلَمظٌ بالشفاه غرغرةٌ وتنهُّدٌ وهمسٌ وحفيف ، انطلاق للفقاعات ، أنين وانتحاب خفيض ، كانت الغابة تعيد تنسيق نظامها ، بعد العاصفة ، كان العالم ، من حولهما ، وهو يتدفق بالحياة الحاشدة ، لا يعطيهما إشارة ولا دليلا لأي عمل .

وكان يبدو له أن ثم ضجيجاً في داخله ، في الموضع الذي لم يعد يشهق طلبا للنفس ، وأن ذلك قد أصبح محتوما . ولكن ما ذلك؟ ما هو بالضبط؟ . وقال لمجرد أن يغرق هذا الضجيج الداخلي ، بالضبط كما يفعل الرجل في

وسط جماعة من الناس ، عندما يحس بلغط فجائي في معدته ، فيدفع كرسيه إلى الخلف ليصطك بالأرض ، قال وهو يتنفس فيخلص صدره من جبل من الاشمئزاز : «أنا أسكن هناك» وأشار بذراعه إشارة غامضة نحو مكان ما ، إلى الأمام .

وأجابت : «ولكن هذا مكان لطيف أن يسكن المرء فيه» .

تسارعت خطواتهما كأنما يدفعهما نبض دمائهما إلى الأمام ، وشقت الشمس لنفسها طريقا من خلال صدع في السماء القاتمة التي كانت ما تزال تبدو ، مع ذلك ، كأنما قد سكب عليها ملء دلو من الماء القذر ، وألقت الشمس تعريشة متشابكة من النور والظلال على الطرقة التي تخترق الغابة ، وقالت ، مرة أخرى : «ولكن هذا مكان لطيف أن يسكن المرء فيه» .

أما هو فقد كان يقلب في ذهنه مسألة العثور على مفتاح للكلام يدخل به إلى الموضوع المحتوم ، وأدرك الآن أولا ، معنى الكلمات التي قيلت على التو ، هذه الكلمات التي يمكن أن تكون هي المفتاح الذي يبحث عنه ، وتشبث بهذه الكلمات ، في تقبض وتشنج ، كلصٍ لا خبرة له يمسك بمفتاح مصطنع .

وأجـــاب : «نعـــم ، لطيف جدا في الحقيقة» . وهو يجرب المفتاح المصطنع ليتحقق مما إذا كان يمكن استخدامه ، ويديره بالفعل في القفل : «ولكن ألطف شيء أن تأتي إليه معي» .

فضحكت ضحكة ملء الحلق وهي تقول : «ولكن هذا بالضبط ما أنا بسبيلي إليه !» كان المفتاح قد دار بالفعل في القفل دون حائل وهي تستطرد : «إنني أتسكع هنا معك منذ ساعة كاملة في وسط المطر والبلل» . فقال : «لا

لست أقصد ذلك في الواقع !» .

ودار بذهنه » آه يا إلهي . . إنها تأخذ الأمر كله كأنما هو طبيعي وعادي جدا» .

ثم راح يثرثر ، على غير هدى ، عن غرفته : «الغرفة غرفتي وحدي ، كلها ، أستطيع أن أصنع لنفسي إفطاري ، وعشائي ، وفوق كل شيء أستطيع أن أفعل ما يروق لي ، أو لا أفعل أي شيء ، كما يروق لي ، أما المنظر بالليل من فوق المدينة . . .» .

وكان يدور بذهنها : «لماذا لا يتكلم إلا عن أشياء لا معنى لها؟ لماذا لا يتكلم إلا عن أشياء لا معنى لها؟» .

ولكنها كانت تضحك من وقت لآخر ، تضحك ضحكة قصيرة ملء الحلق ، ضحكة عضوية إذا صح القول ، أما هو فكان يغرق في ثرثرته ، ليسهل الأمر عليها ويفكر لنفسه ، حتى أفتح لها كل الأبواب وأترك لها كل الطرق مفتوحة للرجوع « ذلك أنه كان يفكر أنه لم يكن ليستطيع أن يشدها إلى الأرض هنا ، بكل بساطة ، في وسط الشجيرات المبلولة ، على أحد جانبي الطريق .

ثم لاحظ ضحكها ، وسمعه كأنه صرخة صغيرة منقلبة رأسا على عقب وقال لنفسه : « آه . . شد ما هي خائفة إلى حد مروع ، ما دامت تتصرف على هذا النحو ، خائفة إلى حد مروع !» .

ولذلك فقد قال لها : «أعتقد أن الوقت قد حان لأن أوصلك لبيتك . .»
ودار بذهنه أنها تستطيع ، حتى الآن أن تخالفه الرأي .

نظرت إلى أعلى وتجاوزته بنظرتها . وانطلق في صدرها مضض مندفع ،

يمزق صدرها ، ويعري قلبها ، ودار بفكرها في لحظة توقف واحدة صغيرة ، لحظة لم تكد تستغرق من الزمن أكثر من خطوة واحدة ، لحظة لم تكد تكفي أن تعتصر من صدرها نفسا واحدا ، ولكنه نفس - فيما أحست - يستغرق حياة بأكملها ، لو أنه رماني إلى الأرض ، وسط الشجيرات المبلولة ، لما اهتممت ، لكنها قالت ، كأنما تشد قلبها وتجذبه بأظافرها ، قالت له عندئذ : «نعم ، صحيح الوقت تأخر فعلا . .» وهي تهمس لنفسها ، في الوقت نفسه ، لا يسمعها أحد : «ومع ذلك فإنه سوف يقول لا ، يجب أن يقول لا . .» .

لكنه لم يفكر إلا في أنها لابد أن تكون خائفة على حد مروع ، ومن ثم فقد استدار ، واتجه نحو حدود المدينة واثقا من طريقه .

كانت الظلمة تقترب ، من كلا الجانبين ، بين جذوع الأشجار ، تتراكم في حيطان لا يمكن تسلقها ثم ظهر أول ضوء أمامهما ، يومض ويشع .

وهذه العلامة البعيدة الساكنة ، علامة الأمن العائلي التي تتخايل لحظة واحدة من الزمن ، قد حركت فجأة ذكريات بقيت كامنة على حواف كيانها ، مستبهمة لم تتشكل معالمها حقا ، ولو كان ذلك في خيالها حتى الآن ، ذكريات جثة متعفنة للمرأة القتيل في حقل القمح ، وقد نفذ في عنقها ثقب يصل حتى عظام العمود الفقري والمرأة المخنوقة في ردهة البيت وقد تركت كأنما تجلس مستندة إلى هيكل الباب ، والفتاة التي رمى بها التيار إلى شاطىء النهر ، بجمجمة محطمة . ثم جاءت الأصوات كلها : قرقعة مفاصل الأصابع عندما تطبق اليدان الخشنتان ، يدا الرجل ، حول العنق ، والأنفاس التي تنطلق في حفيف منفوث عندما تدفع السكين إلى داخل الصدر ، حتى المقبض ، وفوق ذلك كله ، الصرخات ، هنا وهناك ، في كل مكان ، الصرخات التي تنقطع

فجأة ، وتختنق ، وتكتم في ضربات مسدودة : ودائما بقع الدم المتخثرة السوداء الجافة على النسيج الممزق في النباتات التحتية ، في القبور على عرض الطريق ، في هشيم التبن في الحظيرة . والفضل للصحف في كل هذه الذكريات التي تطوف بذهنها ، ذكريات الدم ، الدم من شرايين العنق ، ولكن هناك أيضا ذكريات الدم ، أقدم عهدا من أي صحيفة ، وتنساب من أسلافها هي ، وهذه الذكريات جميعا تغزو كيانها كله الآن . ومن ثم فقد كانت تتمنى أن تجد نفسها بعيدا عن هنا ، وفي وسط المدينة حيث تتقد أضواء النيون طوال الليل ، وتطوف دوريات الشرطة . . . بعيدا عن هنا ، بعيدا جدا . .

وفي هذه الأثناء وجدا نفسيهما في الأحياء السكنية ، وكانا منذ الآن يسيران بين الڤيللات والمنازل المتباعدة . وكانا يريان ظلالهما تتضاءل وتنمو تحت مصابيح الغاز التي لم تعد تبقى إلا في هذه الأحياء ، وكانت الكلاب تنبح ، ووقفت سيارة ، بصوت فرملة ، أمام محطة البنزين ، وسرعان ما حلت محل الحدائق بيوت تقترب من بعضها بعضا في واجهات متصلة .

ودفع لها تذكرة الترام مرة أخرى ، ووصلها حتى باب بيتها ، حيث وقفا لحظة يتكلمان عن بعد الظهر الشائق الذي أنفقاه معا .

«ولكن . . خسارة . . . الجو . .» .

«نعم ، خسارة . . .» .

«ولكن الأسود ، مع ذلك كانت . .» .

«والثعابين ، هناك . . .» .

«سنلتقي مرة أخرى ، قريبا . .» .

«نعـــم ، إذا أحببت» .

وهكذا ، وهلم جرا ، على هذا النحو ، في ثقل وجهامة ، وفي غير استقرار على عزم ، كالجو في ذلك اليوم ، وقد قصرت العاصفة الرعدية عن أن تأتي بأي تغيير حاسم أو تنتهي به إلى وضوح لا غموض فيه .

استندت إلى هيكل الباب ، ووقف أمامها هادئا . وتثاءبت ، ولم تلحظ ذلك إلا عندما كان فمها مفتوحا بالفعل ، فرفعت يدها بأصابعها الرفيعة المبسوطة ، أمام فمها . واجتذبت هذه الحركة انتباهه ، وجعلته يرتعد ، إذ رأى ، خلف شباك أصابعها ، تجويف فمها مثل فكي حيوان متوحش يغلب عليه النوم ، وشد ما كان يسره أنه قد أفلت منه . حتى لقد ودعها بدون تمهل ، وانطلق إلى بيته .

كان يقول لنفسه ينحي عليها باللائمة : «سريع التصديق ، وما أسرع ما أمنح ثقتي» .

وإن لم يكن هناك في الواقع من سبب يدعوه لأن يصدر على نفسه مثل هذا الحكم القاسي . ذلك أنه على الرغم من أن العقل يقاتل دائما إلى جانب الضعفاء ، وينحاز إلى نصرة قضيتهم كأنها قضيته هو نفسه وعلى اعتبارها القضية الأسمى ، فإن مأساة العقل هي أنه يجب ألا يغفل عن أن يثب من الكفة المثقلة في الوقت المناسب ، ذلك أنه ، في سبيل بقائه ، هو نفسه ، لا يمكن أن ينجز الشيء الذي قد مهد أمامه الطريق ، بفضل تدخله نفسه . ولكنه لم يكن يعرف ذلك بالتأكيد ، ولو أن ذلك كان كل ما يشغله .

وفي بيتها ، في غرفة نومها ، خلعت ملابسها بحركات سريعة مستشيطة ، بأظافرها الممدودة ، وتسلقت إلى سريرها ونامت وعلى لسانها مذاق طيب سلفا ، مما سوف يكون عليها أن تحكيه في الغد «ماذا تظنين أنه كان يمكن أن

يحدث لي بالأمس؟» . ثم لم تردد ، في الغد ، إلا ما كان يمكن أن تقوله أية فتاة أخرى ، وما كانت تقوله في الواقع كل الفتيات ، في مناسبة ما من المناسبات .

هنريش بول

•

يظل هنريش بول صوتاً هاماً ومتميزاً في الأدب الألماني ، ولد في كولونيا في العام ١٩١٧ لأب مثَّال ، واشتغل في مكتبة قبل الحرب . ولعله كان مدفوعا بكاثوليكيته ، وحسه الخلقي ، ورؤيته النقدية الحادة إلى أنّ يدين - بالفن لا بالشعار - جرائم الحرب وغباوتها ، وإلى أن يتوجس خيفة من مظاهر العقم والجدب في كثير من جوانب حياة المجتمع الغربي المعاصر (هل لحق بنا شيء من العقم والجفاوة أيضا؟) .كاتب مؤمن أساسا بالإنسانية ، وعميق الحس الخلقي ، يبحث عن قيم أصيلة في مجتمع يراه قد أسلم قيادة للمادية والنفاق .

كان قد جند في الجيش الألماني وخدم في الجبهتين الروسية والفرنسية وجرح أربع مرات ثم وجد نفسه في معتقل أمريكي لأسرى الحرب الألمان . رأس بول «نادي القلم الدولي» وكان أحد كبار المناضلين من أجل حرية الفكر والتعبير لكتّاب العالم . ونال جائزة نوبل في ١٩٧٢ .

كتب هنريش بول الرواية والقصة القصيرة والدراما الإذاعية . كانت روايته الأولى «وصل القطار في ميعاده» ! ثم الثانية «أين كنت يا آدم؟» قد عكفتا على تصوير اليأس الذي حاق بأولئك الذين أغرقتهم غمرات الحرب الكلية الشاملة (العالمية الثانية) أما رواياته اللاحقة فتتناول الخواء الخلقي الذي جاء مع «المعجزة الألمانية» عقب الحرب . رواية أخرى مثل «خبز تلك السنوات المبكرة» تصور الفقر والجوع الروحي والمادي في السنوات التي أعقبت الحرب مباشرة .

الرجل والسكاكين

كان جاب JUPP يمسك بالسكين من طرف شفرته ، ويتركها تتأرجح ، على مهل وهينة ، من جانب إلى جانب . كانت سكينا طويلة من سكاكين الخبز ، رقيقة الصفحة ، وكان المرء يستطيع أن يرى أنها حادة . وبحركة مفاجئة طوح بها عاليا في الهواء . واندفعت السكين إلى أعلى ، وهي تطن كمحرك قارب بخاري ، تشق رقعة من ضوء الشمس الخابي تبدو كأنها سمكة ذهبية ، ثم اصطدمت بالسقف ، وفقدت دفعتها ، وسقطت إلى أسفل بحدة ، وطرفها المدبب إلى تحت ، متجهة مباشرة إلى رأس جاب ، حيث كان قد وضع ، بسرعة البرق الخاطف ، قطعة مربعة من الخشب السبيك . وانغرز طرف السكين بعمق في الخشب ، واندفعت فيه السكين ، ثابتة ، مقبضها يهتز في الهواء ، رفع جاب قطعة الخشب من على رأسه ، وخلص السكين منها ، وقذف بها إلى الأرض بغضب ، حيث انغرزت في لوحة من الأرضية ، وهي ترتعد ، حتى خلصت نفسها من الحز الذي سقطت فيه ، ووقعت على الأرض .

قال جاب بصوت خفيض : «هذا يدعو للاشمزاز . اللعبة التي ألعبها مبنية على مبدأ واضح بذاته ، إن الجمهور عندما يدفع نقوده على الباب ، فهو يفضل أن يرى لعبة فيها خطر على الحياة ، أو على الجسم ، كما كان الحال بالضبط في

السيرك الروماني ، الجمهور يريد على الأقل أن يعرف أن الدم من الممكن ، من الممكن أن يراق ، هل تفهمني؟ . ولكن لا خطر هناك فيما أفعل» .

ورفع السكين ، وبحركة من معصمه أرسلها تطير إلى الإطار الخشبي فوق النافذة بضربة بلغت من العنف أن اصطفقت الألواح الزجاجية وبدا كأنما توشك أن تسقط من إطارتها الهشة .

كانت هذه الرمية ، واثقة ، رمية أستاذ . وذكرتني بأيام الحرب الموحشة القاحلة عندما كان جاب يرسل مطواته إلى أعلى وإلى أسفل ، في اتجاه الدعامات الخشبية في المخبأ .

واستطرد جاب يقول : ليس هناك ما أتراجع عن أن أفعله حتى أرسل نشوة عصبية في الجمهور . إنني على استعداد لأن أصلم أذني حتى يرضى الجمهور ، لو أنني فقط وجدت من يثبت أذني في مكانهما من جديد . ولكني لا أستطيع أن أعيش بدون اذنين : افضل أن أقضي بقية حياتي في السجن والآن تعالي معي» .

جذب الباب ففتحه ودفعني أمامه وخرجنا إلى السلم ، حيث لم يعد يوجد على حيطانه إلا مزق من ورق الجدران ، في المواضع التي التصق فيها الورق بالجدران حتى كان من المستحيل تمزيقه عنها أما بقية الورق فقد ذهب طعمه لنيران المواقد ثم اجتزنا بحمام مهمل وخرجنا إلى مكان كالشرفة أرضها من الأسمنت المكسور حيث تنمو رقع من الطحلب هنا وهناك . وأشار جاب إلى أعلى قائلا : بالطبع كلما ازدادت المسافة فوق رأسي ، لترتفع فيها السكين ، كان ذلك أفضل ، في لعبتي يجب أن يكون هناك سقف لتصطدم به السكين حتى تفقد اندفاعها ، وتهبط مباشرة إلى أسفل وطرفها المدبب متجه إلى رأسي

الذي لا فائدة فيها . . انظر . .» وأشار إلى أعلى ، حيث كان يبرز في الهواء إطار حديدي لشرفة محطمة ، وقال «هنا كنت أتمرن طوال اليوم خلال سنة كاملة أنظر إليّ الآن» وأرسل السكين تئز إلى أعلى ، كان طيران السكين ثابتا منتظما إلى حد معجز ، لا ينال منه الوهمة . كأنه طيران عصفور ، ثم اصطدمت السكين بقاعدة الشرفة وانطلقت مندفعة إلى أسفل بسرعة تخطف الأنفاس ، إلى كتلة الخشب فوق رأس جاب . ولابد أنها أعطته صدمة كبيرة ، لكن جاب لم يطرف جفنا . كانت سن السكين قد ذهبت إلى عمق بوصة على الأقل في جوف الخشب .

فهتف : برافو . . هذه تحفة . . لابد أن الناس الذين أتعامل معهم يسلمون بأن هذه لعبة جديرة حقا بالمشاهدة .

جذب السكين من الخشب بحركة عابرة لا اهتمام فيها ، ورفعها ، قائلا : «نعم أعتقد ذلك ، يعطونني اثنى عشر ماركا في الليلة لكي ألعب بالسكين بين لعبتين طويلتين . ولكن لعبتي بسيطة جدا ، رجل ، وسكين وكتلة خشب ـ هل تفهمني ـ ليس هناك تنويع ، ليس هناك توتر . كان ينبغي لي أن تكون معي امرأة نصف عارية على المسرح وأن أطوح بسكيني على قيد شعرة من أنفها . هذا يثيرهم ولكن أين أجد مثل هذه المرأة .

ورجعنا إلى الغرفة ووضع السكين بعناية على المائدة ، وكتلة الخشب المربعة بجانبها ودعك يديه . ثم جلسنا صامتين على صندوق بجوار الموقدة ، وأخذت قطعة من الخبز من جيبي وقلت له «تفضل» .

قال «بكل سرور . وسأصنع قهوة ، ثم تأتي معي إلى المسرح تشاهد لعبتي» دفع بشيء من الخشب إلى الموقدة ، ووضع قدْراً على فتحتها وقال «إنني في

حالة يأس . أعتقد أنني أبدو بمظهر جاد أكثر مما ينبغي . لعلني أبدو قليلا ، كأنني عريف في الجيش ، ما رأيك؟» .

قلت «كلام فارغ لم تكن أبدا عريفا في الجيش ولا تبدو على الإطلاق بهذا المظهر هل تبتسم عندما يصفقون» .

أجاب طبعا . وانحنى أيضا .

قلت : لا يمكنني ذلك . لا يمكنني أن أبتسم في مدفن ! .

أجاب : أنت مخطىء كل الخطأ . هناك على وجه الدقة ينبغي أن تبتسم .

قلت : «لا أفهمك» .

أجاب : «أقصد لأنهم ليسوا موتى حقا . لا أحد ميت . هل تفهمني؟» .

قلت : «أفهم ما تقول . ولكني لا أؤمن به» .

أجاب «مازال فيك شيء من الضابط الملازم الذي كنته في الجيش . نعم بالطبع ، في المدفن ، هو ينام لزمن أطول في المدفن ، أما عن جمهوري فإنني سعيد بأن أسليهم . هم بلا حياة ، ولذلك فإنني أدغدغهم قليلا ، ويدفعون لي الثمن . لعل أحدهم عندما يعود إلى بيته ، لا ينساني . لعله يقول لنفسه «يا إلهي . . هذا الرجل الذي يلعب بالسكاكين . لم يكن خائفا ـ بينما أنا خائف دائما . . يا إلهي . .» فأنت تعرف أنهم جميعا خائفون طوال الوقت . يجرُّون خوفهم ، وراءهم كظلّ رصاصي ، ويسعدني إذا استطعت أن أجعلهم ينسونه ويعملون قليلا . أنت ترى أن لي أسبابا وجيهة لأن أبتسم لهم» .

لم أقل شيئا ، وأخذت أرقب الماء يغلي . وصب جاب القهوة في قدح من الخزف البني ، وشربنا منه ، كل بدوره ، ونحن نمضغ قطعة الخبز التي كانت معي وفي الخارج كانت القمة تهبط ببطء ، وتدفق الشفق إلى الغرفة كسيلٍ من

اللبن الرمادي الناعم .

سألني جاب : «ماذا تصنع لتكسب عيشك؟» .

أجبت : لا شيء . . أعيش كيفما أتفق ، من يوم إلى يوم» .

قال : «تلك مهنة شاقة» .

أجبت : «نعـم . . اضطررت ، لكي أكسب قطعة الخبز التي نأكلها الآن ، أن أكسر مائة قطعة من الحجارة . . يسمونه عملاً موسمياً» .

قال : «نعم . . هل تحب أن ترى لعبة أخرى من لعبي؟» .

فأومأت برأسي ، ونهض جاب ، وأدار زر النور ، وذهب إلى الحائط حيث أزاح ستارة خشنة فكشف عن رسم لرجل بخطوط عريضة بالفحم على طلاء الحائط المحمر المتاكل . كان يرتفع على رأس الشكل . بروز غريب يبدو أنه يمثل قبعة . وعندما اقتربت استطعت أن أرى أن الشكل كان مرسوما على باب مخبأ ببراعة .

وابتدأ الأمر يشوقني عندما جذب جاب من تحت سريره الرث صندوقا بنيا جميلا ، ووضعه على المائدة . وقبل أن يفتحه جاء إليَّ ووضع أربع ورقات من ورق السجاير على المائدة ، وقال : «لف سيجارتين بهذه الأوراق» .

غيرت موضعي حتى أستطيع أن أراه من موقع أفضل ، وحتى أستزيد الفائدة من دفء الموقدة . وبينما كنت أبسط ورق السجاير بعناية ، ضغط جاب على زنبرك فانفتح ـ الصندوق ، وجذب منه علبة غريبة الشكل ـ وكانت إحدى هذه العلب القماشية المتعددة الطوايا والكثيرة الجيوب التي كانت أمهاتنا تحتفظ فيها بالسكاكين والشوك والملاعق من جهازهن . وفتح جاب قفل العلبة ، وبسطها على المائدة . كنت تحتوي على نحو اثنى عشرة سكينا بمقابض

من العاج من النوع الذي كان يسمى بسكاكين الصيد أيام كانت أمهاتنا في شبابهن ، يرقصن الفالس . كنت قد بسطت الطباق بحرص على ورقتين من ورق السجاير ، ولففت السيجارتين .

قلت له وأنا أعطيهما لجاب : «هاك سيجارتين ، فرد إلى واحدة منهما قائلا شكرا ، ثم أطلعني على العلبة كلها وهو يقول : «هذا هو الشيء الوحيد الذي استطعت أن أنقذه من ممتلكات والدي . احترق كل شيء ، أو نسف ، أو سُرق . وعندما خرجت من السجن مهلهل الملابس ، في أتعس حال ، لم أكن أملك شيئا ، لا شيء على الإطلاق . حتى بحثت عني سيدة عجوز رائعة ، كانت تعرف أمي ، وعثرت عليَّ وأعطتني هذا الصندوق الصغير الجميل . كانت أمي ، قبل أن تقتلها القنابل ببضع أيام ، قد أعطتها هذا الصندوق لتحتفظ به وبذلك نجا هذا الشيء الصغير ـ غريب أليس كذلك؟ ولكننا بالطبع نعرف أن الناس ، عندما يهددهم الدمار ، يحاولون إنقاذ أغرب الأشياء ـ لا أكثرها ضرورة أبدا . ومن ثم فقد أصبحت مالك هذا الصندوق ومحتوياته التي كانت في الأصل تتكون من قدح القهوة البني ، واثني عشرة شوكة ، واثني عشرة سكينا ، واثني عشرة ملعقة . . آه . . وسكين الخبز الكبيرة أيضا . . بعت الشوك والملاعق وعشت على ثمنها عاما بطوله ، بينما كنت أتعلم استخدام السكاكين . السكاكين الثلاثة عشرة كلها . . انظر إليَّ . .

أعطيته الجذوة التي أشعلت منها سيجارتي . فأشعل جاب سيجارته ورفعها إلى شفته السفلى . ثم ثبت عروة العلبة إلى زرار عالٍ على كتف سترته . وترك العلبة تنبسط على ذراعه كأنها بعض زينة الحرب التي يرتديها المقاتلون . وبسرعة لا تصدق التقط السكاكين من العلبة ، وقبل أن أستطيع متابعة حركة

يديه كان قد طوح بالسكاكين الاثني عشرة كلها إلى الشكل المظلل على الباب الذي كان يذكرني بتلك الأشكال المترغة المروعة ، نذر الهزيمة ، التي كنا نراها ، معلقة من أعناقها ، من كل عمود للإعلان ومن كل ناحية شارع . ودققت النظر ورأيت سكينتين في قبعة الرجل ، واثنتين فوق كل كتف ، وثلاثا تحدده بالضبط ، كلاً من ذراعيه .

هتف : «غير معقول . . غير معقول أبدا . . أية لعبة يمكن أن تكون هذه مع قليل من الترتيب» .

فقال : «نعم ، ولكنها تحتاج إلى رجل . . رجل معي ـ أو أفضل : امرأة ثم جذب السكاكين من الباب ووضعها بعناية في العلبة ، وقال : «وهذا ما لن أجده أبدا . النساء يخفن ، والرجال أغلى مما أستطيع أن أدفع الثمن . وأنا أفهم ذلك حق الفهم هذا عمل خطر» .

شـــد جـــاب نفسا آخر من سيجارته الهشة وألقى بالعقب الضئيل وراء الموقدة ، وقال : «تعال . أعتقد أننا يجب أن نذهب الآن» وضع رأسه خارج النافذة ، وتمتم «الدنيا تمطر» يا للمصيبة الساعة الآن الثامنة إلا بضع دقائق ، وأنا أطلع على المسرح في الثامنة والنصف» .

وبينما كان يضع سكاكينه في الصندوق الجلدي الصغير ، وضعت وجهي إلى النافذة ، ونظرت إلى الخارج . سمعت وشوشة المطر الوديعة إذ يسقط على الفيلات المحطمة ، ومن وراء صف من الأشجار المترغة سمعت عواء عربات الترام المارة . ولكني لم أستطع أن أرى ساعة في أي مكان فسألته : كيف تعرف الساعة؟ فقال : بالغريزة . . هذا جزء من تدريبي . . فنظرت إليه ، بلا فهم . فساعدني على ارتداء معطفي ، ثم لبس سترته الجلدية . لي كتف مصابة ، ولا

أستطيع أن أحرك ذراعي إلا في نطاق محدود ما يكفي بالضبط لتكسير الأحجار .

ووضعنا قبعاتنا وخرجنا إلى الممر المعتم . كان من المريح أن نسمع ترداد الأصوات الهادئة ، والضحك ، من مكان ما في هذا البيت الموحش .

وبينما كنا نهبط السلم قال جاب : تجشمت المتاعب وتكلفت الكثير حتى أقتفي أثر بضع قوانين كونية معينة . . وفيما كان يتكلم وضع صندوقه على إحدى درجات السلم ومدَّ ذراعيه إلى جانبيه ، فبدا كأنه ايكاروس كما نراه في الصور القديمة وهو يهم بالطيران . وعلى وجهه الرهين الجاد كان ثمة تعبير غريب ، هادىء وحالم في الوقت نفسه . . تعبير كمن به مس ، وكمن يحسب حساب كل شيء معا ، نظرة سخرية ملأتني خوفا . وقال بهدوء : «وهكذا أمد ذراعي في الهواء وأراهما تمتدان وتنموان ، أطول فأطول حتى تنفذان إلى منطقة تنطبق فيها قوانين أخرى تمران خلال قناع تكمن وراءه نشوات غريبة فأنا أمسك بها . أمسك بها بالكاد ـ ثم أستحوذ على القوانين التي تحكمها ، كلص سعيد ، أستحوذ عليها وأحتضنها وأحملها معي بعيدا» وضم قبضته ، وضغطها إلى جسمه . ثم قال وقد استعاد وجهه تعبيره العادي القديم : «تبعته كأنني في حلم» .

كان المطر في الخارج يهمي بانتظام وثبات . وكان الهواء يصفع الوجوه بارداً فرفعنا ياقاتنا ، وانكمشنا ونحن ننتفض إلى داخل أنفسنا وكان ينساب في الشوارع ضباب مسائي تشوبه منذ الآن عتمة الليل الزرقاء السوداء . وفي أقباء الكثير من الفيللات المضروبة بالقنابل كان المرء يستطيع أن يرى نور الشموع الخافت المؤسى ، يتبدى تحت الأنقاض السوداء التي تتراكم فوقه . واستحال

الشارع ، على نحو لا يحس ، إلى طريق موحل على يمينه ويساره أكواخ خشبية قائمة لا تكاد ترى في العتمة ، تبدو وكأنها تطفو فوق الحدائق المغفلة كالسفن الممتدة في مياه جوفية خلفية مخلة . ثم عبرنا خط الترام ، وسرنا في زقاق ضيق يفضي إلى الضواحي حيث كانت بعض البيوت مازالت قائمة في وسط ركام الأنقاض والحطام ، حتى خرجنا فجأة إلى شارع مزدحم مليء بالحيوية . وسرنا فترة من الوقت مع تيار من الناس على الرصيف ، ثم استدرنا في زقاق مظلم ، حيث كان إعلان ملهى «الطواحين السبعة» ، بأنواره الساطعة ، ينعكس على الأسفلت المبلول .

كان مدخل الملهى خاويا . كان العرض قد بدأ منذ بعض الوقت ، وسمعنا طنين الأصوات من الداخل تأتينا من خلال الستائر الحمراء الرثة .

ضحك جاب وهو يريني صورة له في زي رعاة البقر تتدلى بين صور الفتيات الراقصات المتهافتات بالضحك وعلى صدورهن تبرق حبات الترتر والخرز وتحت الصورة تظهر الكلمات «الرجل السكاكين» .

قال جاب : تعال معي «وقبل أن أدرك ما أنا فاعل وجدتني أسير في ممر لم أكن أشتبه في وجوده ، وأتسلق سلما ضيقا ملتويا معتم الإنارة ، تشم فيه رائحة القرفة والماكياج بوجود خشبة المسرح قريبة منا . كان جاب يقودني ، وفجأة وقف في منحنى من منحنيات السلم ، ووضع صندوقه على الأرض ووضع يديه على كتفي ، وسألني بصوت خفيض «هل أعصابك تحتمل» .

كنت أتوقع منذ زمن طويل ، هذا السؤال ، ولكن مباغتته أفزعتني . وأعتقد أنني لم أكن أبدو على قدر كبير من الشجاعة عندما أجبت ، شجاعة اليأس» .

فقال ، وهو يكتم ضحكة : «هذه هي الشجاعة الحقة . هل أنت مستعد للعبة؟» .

التزمت الصمت ، وفجأة سمعنا عاصفة من الضحك الجامح من داخل المسرح . كان الضحك من الشدة والعنف حتى أجفلت ووجدت نفسي أنتفض .

قلت بصوت خفيض إنني خائف .

فأجاب : «وأنا أيضا . . لا تثق في؟» .

قلت بصوت مبحوح خشن : «نعم ، بالطبع أثق فيك . . ولكن . . تعال . . «ثم دفعته إلى الأمام وأنا أقول : «الأمر كله عندي سواء» .

وصعدنا إلى ممر ضيق على كل من جانبيه عدد من المقاصير الخشبية . كانت ثم أشكال ، في ملابس أنيقة تتحرك هنا وهناك ، ومن خلال فجوة بين المقاصير رأيت مهرجا على خشبة المسرح فاغراً فاه الذي يبدو كالكهف العميق . وسمعنا مرة أخرى انفجار الضحك الجامح من الجمهور ، ولكن جاب عندئذ جذبني إلى داخل إحدى المقاصير ، وأغلق الباب وراءنا . وأجلت النظر حولي . كانت المقصورة صغيرة جدا تكاد تخلو من كل أثاث . كان على الحائط مرآة ، وكانت حلة راعي البقر التي يرتديها جاب معلقة من مسمار وحيد ، بينما كانت على كرسي مترع حزمة من أوراق اللعب القديمة . كان جاب على عجلة من أمره ، وكان أيضا ، عصبيا . ساعدني في خلع معطفي المبلول ، ودفع بحلة راعي البقر بعنف ، على الكرسي وعلق معطفي وسترته البلدية على المسمار . ومن فوق الحائط القاطع في مقصورتنا كنت أرى عمودا

على الطراز الدوري اليوناني القديم ، مصبوغا بالأحمر وعليه ساعة كهربائية تشير إلى الساعة الثامنة وخمسة وعشرين دقيقة .

تمتم جاب وهو يشد حُلة على نفسه : «باقٍ خمس دقائق . هل نجري بروفة؟ . في هذه اللحظة سمعنا طرقة على الباب وقال أحدهم ، استعد» .

زرَّرَ جاب سترته ووضع على رأسه قبعة راعي البقر في الغرب المتوحش وقلت ؛ بضحكة عصبية : «هل تريد أن تشنق الرجل المحكوم عليه بالإعدام على سبيل التجربة ، قبل أن تنفذ فيه حكم الإعدام نهائيا؟» .

أمسك جاب بصندوقه ، وجذبني خارجا من المقصورة وفي الممر وجدنا رجلا بصلعة كاملة قاحلة ، يرقب نهاية لعبة المهرج . همس جاب بشيء في أذنه ، لم أستطع أن أتبينه . فرفع الرجل عينيه بنظرة فزعة . ثم حدق إليَّ ونظر إلى جاب مرة أخرى وهز رأسه بإلحاح . فهمس إليه جاب مرة أخرى .

أما من جانبي ، فلم أكن أولي الأمر اهتماما أياً كان مآله . كان بوسعهم أن يجعلوا مني وسادة لغرز الدبابيس ، إذا شاءوا ، وكانت لي كتف مصابة مكسورة وكنت قد دخنت لفوري سيجارة ، وكان عليَّ في الغد أن أكسر خمسا وسبعين قطعة من الحجر سأتقاضى في مقابلها ثلاثة أرباع رغيف من الخبز ولكن . . في الغد .

كان عرض المهرج قد انتهى وتدفق التصفيق إلى الكواليس . وأسرع المهرج خارجا من فتحة المسرح ، بوجه مشدود مرهق وجاء إلينا . وقف ينتظر بضع لحظات وعلى وجهه تعبير نغمة عالية نهائية ، ومضى جاب يهمس إلى الرجل الأصلع وعاد المهرج إلى المسرح ثلاث مرات لينحني ويبتسم للجمهور الذي

يصفق . ثم أخذت الأوركسترا تعزف موسيقى مارش عسكري ، وسار جاب ، يحمل صندوقه إلى خشبة المسرح ، بخطوات حازمة . استقبله الجمهور ببضع صفقات عرضية عابرة ، ثم أخذت أرقب جاب بعينين مرهقتين ، وهو يثبت أوراق اللعب على صف من المسامير ثم يخترق كل ورقة منها ، بسكاكينه ، في القلب تماما . واشتدت حيوية التصفيق قليلا ، ولكنه كان مازال تصفيقا ليس فيه إلا نصف حماس ثم مضى جاب ، بمصاحبة وقع طبول رفيق ، يؤدي لعبة بسكين الخبز والكتلة الخشبية ، ولاحظت بالرغم من إحساس باللامبالاة ، أن اللعبة تفتقر حقا إلى الإثارة وعلى الجانب الآخر من المسرح لمحت بضع فتيات لا يرتدين شيئا كثيرا ، وهن يحدقن إلى اللعبة من الكواليس . . ثم أمسك الرجل الأصلع بي ، وجرني إلى المسرح ، أدى تحية عسكرية إلى جاب ، وقال بالصوت الذي يستخدمه الممثلون عندما يقومون بأدوار رجال الشرطة : «مساء الخير يا سيد بورجاليفسكي» .

قال جاب بنبرة رضية حسب الأصول : «مساء الخير يا سيدي» .

قال الرجل : «أتيت لك هنا بلص ، لص جياد ، وغير زنير يا سيد بورجاليفسكي . . نريدك أن تدغدغه قليلا بهذه السكاكين الرشيقة معك ، قبل أن نشنقه ، وغدٌ زنيم . . كان صوته يبدو لي ممجوجاً سخيفا ، ووضيعا وزائفا في الوقت نفسه ـ كالأزهار الاصطناعية أو التواليت النسائي الرخيص - ألقيت على الجمهور بنظرة ، ورأيت أمامي وحشاً بألف رأس ، معتم ، يومض وميضا كابيا ، متوترا يجلس في الظلمة ، متحفزا للوثوب والانقضاض . ومنذ تلك اللحظة ، انقطعت عني كل حرارة ، ببساطة لم يعد هناك أدنى أهمية لأي شيء كانت بهرة الأضواء العاكسة تزيغ بصري وكنت أبدو بالفعل ، في حلتي الرثة ،

وحذائي البالي المفتوح ، كأني لص .

قال جاب : «اتركه لي يا سيدي سوف أسلخه لك . .» .

قال الرجل : «عظيم . . سأتركه في رعايتك . . لا توفر السكاكين . . لا تخف عليها» .

قبض جاب على عنقي ، بينما كان الرجل يهرول خارجاً من المسرح وعلى نواجذه ابتسامة ثابتة ، وطارت إلى المسرح قطعة حبل أتت من مكان ما ، ثم ربطني جاب إلى العمود المصنوع على الطراز الدوري اليوناني القديم أمام أحد الأبواب المصبوغة بالأزرق التي تفضي إلى الكواليس . جاءني إحساس غريب بالهذيان كانت اللامبالاة فيه تسود كل شيء وعلى يميني سمعت التمتمة الفرعية المتعددة ، الأصوات التي تنبعث من جمهور يسري فيه انفعال الإثارة والهيجان ، وأدركت أن جاب كان محقا ، تماما عندما تكلم عن شهوتهم إلى الدم شهوة تمور ، مرتجفة في الجو العطن الحلو النكهة بينما كانت دقات الطبول المتوترة تصعد من الأوركسترا على نغمة من القسوة المنتشية وتزيد من حدة الإحساس بالترايكو ميديا الرهيبة ، التي قد يراق فيها دمٌ حقيقي ، دمٌ قد دفعت إدارة المسرح ثمنه . نظرت أمامي مباشرة وتركت نفسي أتهدل في وقفتي ، ولكن الحبل الموثق وثاقا محكما كان يبقيني قائما . وانخفضت دقات الطبول ، وانخفضت ، بينما كان جاب برشاقة المحترفين يلتقط السكاكين من أوراق اللعب ويضعها في علبة ، وهو ينظر إليّ في أثناء ذلك بتعبير احتقار ميلودرامي . وبعد أن وضع كل السكاكين في مكانها ، استدار إلى الجمهور ، وقال بصوت مفتعل : «سيداتي وسادتي ، سوف أتوج الآن هذا السيد بالسكاكين . ولكني أريدكم أن تروا أن هذه السكاكين ليست مثلومة السنان

على الإطلاق . .» . وبينما كان يتكلم ، أخرج من جيبه قطعة من الخيط ، وبهدوء مخيف ، أخرج السكاكين واحدة بعد الأخرى من العلبة وهو يمس الخيط بكل سكين منها ، فيقطع الخيط إلى اثنى عشرة قطعة . ثم وضع كل سكين بعناية في جيبها .

وفي خلال هذه الأثناء كلها كنت أنظر من فوق رأسه إلى ما وراء الفتيات نصف العاريات في الكواليس ، إلى حياة جديدة فيما كان يبدو لي .

كان الجـو مكهربا بانفعال الجمهور . جاء جاب إليّ ، وتظاهر بأنه يوثق من شد الحبل الذي كان يربطني إلى العمود وهمس إلي «الزم السكون تماما . . لا تتحرك . . ولا تخف أيها الرجل العزيز . .» .

كان تأخره في بدء العمل قد خفف من التوتر الذي بدا كأنما قد يتبدد ويضيع ، ولكنه فجأة قبض على الهواء ولوح بيديه كالطيور التي تدوم وتئز بصوت خفيض وجاء على وجهه هذا التعبير عن السكينة السحرية التي كانت قد غلبتني على أمري عندما كنا نهبط السلم في بيته .

وفي نفس الوقت بدا كأن وجهه ، وحركاته ، تسحر الجمهور وخيل إلي أنني سمعته ينفث بأنين غريب مفاجىء معلق ، وأدركت أن ذلك كان علامة تحذير لي .

استدعيت عينيَّ من المسافة اللانهائية اللتين كانتا تسبحان فيها ، وركزتهما على جاب الذي كان الآن واقفاً أمامي مباشرة . كانت اللحظة قد حانت . وقفت ساكنا ساكنا تماما ، بلا حراك ، وأغمضت عيني .

كان إحساسا رائعا عجيبا ـ لم يستمر إلا لحظات قلائل ، لست أدري كم

استمر وإذا كنت أسمع أزيز السكاكين الخافت ، وأحس بالهواء الذي تثيره وهي تصفر وتمر بي ، وهي تخطف لتنغرز في الباب ، كان يبدو لي أنني أسير على لوح خشبي ضيق محدود فوق هوة لا قرار لها ، أسير بأمان وثقة ، ولكني على وعي تام بالخطر كنت خائفا ، ولكنني كنت أعرف تماما أنني لن أقع . لم أحص عدد السكاكين ولكنني وجدتني أفتح عيني ، بالضبط بينما كانت آخر سكين تخترق الباب على قيد شعرة من يدي اليمنى .

أيقظتني من غيبوبتي عاصفة من التصفيق . فتحت عيني على شفتهما ، ونظرت إلى وجه جاب الشاحب . جرى إليَّ وفك وثاقي بيدين عصبيتين . ثم جرني إلى وسط المسرح ، حتى أنوار المقدمة . وانحنى وانحنيت ، وفي وسط التصفيق المتضخم المتصاعد أشار إليَّ وأشرت إليه . ثم ابتسمنا إلى أحدنا الآخر ، وانحنينا ، ونحن نبتسم ، للجمهور .

وعندما رجعنا إلى غرفة الملابس ، لم ننبس بكلمة قذف جاب بكومة أوراق اللعب المثقوبة على الكرسي وأخذ معطفي من المسمار ، وساعدني على ارتدائه ثم علق حلة راعي البقر التي كان يرتديها ، ولبس سترته الجلدية ولبسنا قبعاتنا وبينما كنت أفتح الباب هرول الرجل الأصلع إلينا وهو يقول : «ارتفع الأجر إلى أربعين ماركا» وأعطى جاب بضع أوراق مالية . وفي تلك اللحظة فهمتُ أن جاب الآن قد أصبح رئيسي ، ونظرنا إلى أحدنا الآخر ، وابتسمنا .

أخذ جاب بذراعي وسرنا جنبا إلى جنب ، ننزل السلالم الضيقة المعتمة الإضاءة التي تفوح منها رائحة طلاء الزيت العطن ، وعندما وصلنا إلى باب الخروج ، ضحك جاب وقال : «الآن سنشتري سجاير وخبزا . .» .

وانقضت ساعة على الأقل قبل أن أدرك أنه قد أصبحت لي الآن مهنة ثابتة ـ

عمل ليس عليّ فيه أن أعمل شيئا إلا أن أسلم نفسي وأحلم قليلا لمدة اثني عشرة ثانية ، أو عشرين ثانية ، ربما كنت الآن الرجل الذي يرمي بالسكاكين .

رولــو وولــى

●

لماذا ترجمت هذه القصة القصيرة جدا ، ونشرتها في «الجمهورية» في العام ١٩٥٦؟ . هذه قصة من قصص الحرب لكاتب إنجليزي . تلك كانت أيام الكفاح الوطني ضد الاستعمار الإنجليزي بالذات ، وضد الصهيونية ، وضد العدوان العسكري الغربي ، بكل أمجاد هذه الأيام البائدة الآن (هل تبيد أبدا هذه الأمجاد؟) . لم أكن أعرف عن الكاتب شيئا ، ومازلت لا أعرف عنه شيئا . بل لا أكاد أقع عليه في غمار مكتبتي المكدسة الآن بالكتب والمجموعات القصصية التي غصت بها حياتي حتى البشم ، ولكني إذ أقرأ هذه القصة الآن بعد ثلاثين سنة ، ما زالت تشوقني منها هذه اللمسة الأخيرة عن بحث دائب متصل عن شيء لا نكاد نعرفه ولا نكاد نأمل ـ حتى ـ أن نجده ، ولكننا ـ فيما آمل ـ لا نكف لحظة عن البحث .

البحـث

رقت الطائرتان صاعدتين من الظلال ، فوق التلال ناحية البحر ، كنا نطير متقاربين في أول الأمر ، وطرفا جناحينا متماسَّان ، وإذ بدأنا البحث تباعدنا بضع مئات من الياردات ، فقد كان البحث يتطلب منا انتباهنا كاملا غير موزع .

ماذا كنا ننتظر أن نجد؟ لم أكن على يقين ، لعله بقية من الحطام تخلفت من جناح طائرة أو من ذيلها ، شظايا من الخشب شقت حقول القمح وهي صارخة أو اصطفقت برأس صخرة وتناثرت تحتها على الرمال ، أو لعله جرح في الأرض ، حرْقٌ في العشب الأخضر ، أو لعله بقعة من الزيت الداكن على البحر كأنها سطح زجاجي زلج ينزلق من موجة إلى موجة .

لكننا لم نجد شيئا . كنا نطير على خطوط طولية متوازية تبدأ من الأرض وتبعد في البحر . وكانت السحب فوق الصخور ما تزال تغطي بضع تلال عالية . وكان يغلب أن تفصلني عن الطائرة الأخرى ، مزقة من سحابة بيضاء ، أو جانب من تل مرتفع ثم أراها بعد ذلك أمامي على بعد نصف ميل ، فأفتح السرعة حتى ألحق بها . وعندما هبطنا قليلا فوق التلال رأينا الأطفال يجرون من أبواب الأكواخ المطلية بالجير الأبيض ليرفعوا عيونهم إلينا ، وتسابق حصانان في حقلهما باهتياج ، وتوقف رجال ونساء كانوا يعزقون في الحقول

ونظروا إلينا ، وأشار أحدهم بذراعه ، لكننا كنا نقتحم عليهم صباحهم ، فماذا كانوا ليفهموا من بحثنا؟ . هناك على الأرض تحت ، كان هناك سكون وطراوة ، سكون الصبح الباكر . كنت أحس هذا السكون فيما كنا نثيره من أمارات الاضطراب ، الأحصنة الخائفة والوجوه المرفوعة . وعلى الرغم من ضجيج الآلات كنت أحس هذا السكون كما لو كنت معهم على الأرض . ولم يكن ثمة حطام أو جرح أسود في الأرض ، ونسيت لحظة عمَّ كنا نبحث ـ فلعله قلعة أو قرية بل ربما كان شيئا صغيرا جدا وثمينا ، زهرة نادرة ، أو خاتما مفقودا .

وأصبح في وسعنا أن نهبط بارتفاعنا على البحر ، كان البحر هادئا جدا . ولم تكن تظهر فيه قمم الأمواج البيضاء إلا على الصخور ، والأمواج ترقص وتتدافع ـ ولم تكن ثمة مراكب في هذه الناحية من الشاطىء ، فلعل الحرب أوقفت معظم الصيد في الجزيرة ، وبعيدا في البحر كان صف طويل من البواخر يبحر على هيئة قافلة ولم تهتم بنا البواخر أدنى اهتمام عندما اقتربنا منها فشعرت بالغضب إذ أبدت هذه اللامبالاة بما كنا في سبيله من بحث .

وواصلنا بحثنا على سطح الحياة المتألق .

وأوجعتنا أعيننا من سطوع البحر . وكلما وقعت على بقعة داكنة كنت أدور حولها في اهتمام وعناية حتى أرى أنها ليست إلا كتلة من عشب البحر أو برميلا مهجورا يتأرجح على الأمواج .

ثم استدعينا إلى القاعدة ، وجاءنا صوت من الأرض يدعونا للرجوع . وسرعان ما كنا ننزل في المطار ، ندور على الأرض ، وتوقفنا .

وسألنا عمال المطار وهم يدفعون الطائرتين إلى المخزن :

ـ لم تصادفا حظاً اليوم؟ .

وسألنا الناس بالتليفون :

ـ هل رأيتما شيئا؟ .

ماذا كانوا ينتظرون منا أن نجد؟ لا . لم نــر شيئا بعد ـ وطوال حياتنا نحن نبحث ولم نجد شيئا بعد ـ ليس إلا الأكواخ المطلية بالجير الأبيض ويضع خصلات من عشب البحر . ليس إلا زرقة الأمواج اللامعة الخاوية . وكنت منهكا حتى لم أعد أتذكر ماذا كنا نبحث عنه ، في الأصل كان ذلك واضحا تمام الوضوح ، بالتأكيد ، منذ برهة قصيرة : كانت إحدى طائراتنا مفقودة ، ولم يعد أحد طيارينا للقاعدة ولكن ذلك لم يكن إلا الليلة الفائتة ونحن بالتأكيد كنا نبحث منذ أمد أطول من ذلك بكثير؟ . لقد بدأنا البحث منذ دهور وأجيال ، وهاهي ذي تقع حادثة تذكرنا أننا يجب أن ننظر من جديد بل لقد استحققنا هذه الخسارة لأننا قد تراخينا وانحرفنا في بحثنا . وغدا ، أو بعد غد ، أو بعد ذلك بكثير ، ربما ، سوف يكون علينا أن نخرج للبحث من جديد .

مـــاكـــس وايـــزمـــان

•

«الـــدرس» أول قصة منشورة لكاتبها الشاب ماكس وايزمان . نشرت عام ١٩٤٧ ، في مجلة «بارتيزان ريفيو» ، ودفعني إلى ترجمتها ، في الخمسينيات ، ما فيها من حرارة وجرأة وحس إنساني عميق ونادر الصدق . ليست هذه قصة عادية بأي معنى من المعاني . فهي تعكس ، أولا ، خلفية اجتماعية واقتصادية معينة ، بنغمات ليس فيها أدنى قدر من التقحم أو الارتفاع . لكن قيمتها ـ فيما أظن ـ تعود إلى أنها من القصص القليلة التي تعالج وضعا يكاد يكون تقليديا ، من زاوية جديدة كل الجدة . فنحن هنا ـ كما يجري مصطلح الرطانة الفرويدية المألوفة ـ أمام موقف أوديبي غطي . لكن عنف القصة يتأتى من أنها تصور انسلاخ الطفل عن الحنـــو القاتل للأم ، تصور مخاض الولادة الحقيقية ، وآلام الفطام الحقيقي ، وأزمة النضوج الواعي المقصود ، كما لم يصوره إلا النادر من أعمال الفن .

وعلى ما يبدو في هذه القصة ، للوهلة الأولى ، من انتهاك للمواضعات الاجتماعية ، فإنَّ صدقها المحرق يغفر لها هذا التطاول على المحظورات ، بل قيمتها الخلقية والفنية في مجابهة هذا الصدق نفسه ، بعينين مفتوحتين صافيتين حتى في وسط العنف والألم .

الـدرس

سألتـه : هل وجدت الدولار ونصف؟ .

كانت أمه تجلس من الناحية الأخرى من الغرفة ، تخلع جواربها . كانت قد وصلت للتو من المحل .

ـ أي دولار ونصف؟ .

رفعت إليه بصرها ، وأسى مفاجىء حاد في عينيها . وقالت :

ـ أي دولار ونصف .؟ وضعت دولارا ونصف في حقيبتك أمس . كنت أريدك أن تتناول عشاء طيبا .

قال : آه ، هذا . لن أتعشى هنا الليلة .

ـ لأنني وضعت دولارا ونصف في حقيبتك أمس؟ .

ـ لأنك وضعتها في حقيبتي دون أن تقولي لي . كل ما فعلته يا أمي ، أنك رميت دولارا ونصف في الشارع .

ـ رميتها في الشارع؟ وضعتها في حقيبتك مع جواربك . وضعتها في ظرف مخصوص في الحقيبة . .

ـ أخذت الجوارب ورميت الكيس في الشارع دون أن أرى ما فيه .

ـ ولكن كيف حدث ذلك؟ . وضعت عملة فضية ، حتى أجعله ثقيلا ، ألم تحس؟ . كيف حدث أنك رميتها؟ .

كان وجهها قد انقلب عند سماعها ما قال .

لم يكن قد فتح الكيس على الإطلاق . كان على طرف لسانه أن يقول لها إن النقود بمأمن . كانت هذه النقود معناها وقوفها ثلاث ساعات تقريبا وراء منصتها في هذا المحل الهائل الشاسع ، وأن تقول لكل صنوف الناس : «نعـم يا سيدي ، أية خدمة؟» .

لكن الأمر كان قد بلغ مدى بعيدا ، أبعد مما يحتمل ، كتلة ضخمة لا شكل لها ، بحر لا حدود له يغرقه .

ـ آه . . أنت . . . أنت حمل ضال . ترمي الكيس دون أن تنظر ما فيه .

فنهض ، وقال ، قلت لك مرارا وتكرارا لا أريدك أن تدفعي إليَّ نقودا بالقسر ، عندما لا أطلب ذلك منك . أريد أن تكون لكلماتي معنى . لا أتصور جوعا للعشاء الليلة . سأعود إلى غرفتي . كل ما فعلت أنك رميت إلى الشارع دولارا ونصف وحملتني أن أعود دون عشاء .

فقالت وهي تنظر إلى عينيه بانفعال مشوب : إذا لم تبق للعشاء فلا تضع قدمك في هذا البيت مرة أخرى .

ـ أعني ما أقول ، ألا تستطيعين أن تدخلي هذا في رأسك؟ . أنا أعطيك درسا ، في هذا .

ولبس سترته . كانت ماتزال تعتقد أنه يناورها . فقد كان هددها كثيرا بذلك ، ثم استسلم في النهاية لدموعها العميقة المعاناة وصرخاتها .

قالت وهي تحس فجأة أنه ينوي الذهاب حقا : ابق في مكانك . اخلع سترتك . ما كنت أريدك إلا أن تأكل . أستطيع أن أستغني عن النقود . ماذا تريد أن تأكل .

ـ هذه المرة أنا مصمم . هذا درس . معناه أنه عليك أن تكفي عن الجري هنا وهناك . وفي يدك النقود وتدفعينها إلى يدي ، عليك ألا تعطيني حتى أطلب . وسوف أطلب . كنت سأطلب منك يوم الأربعاء . ولكنك تدفعينها إليّ ، كأنني طفل . ألا تفهمين أنني أعني ما أقول؟ . عليك أن تصدقي يا أمي أنني سوف أكون قويا . سأعود هنا للعشاء بعد يومين . ولكنك إذا حاولت أن تعيدي مسألة النقود هذه مرة أخرى ، فلن أعود .

سار إلى الباب ، وفتحه . وجرت وراءه .

قالت وهي تمسكه من ذارعه : سأصرخ في الردهة . سأصرخ في الردهة إذا خرجت . سأذهب إلى غرفتك الليلة وأثير ضجة .

ـ وماذا يحدث لو أثرت ضجة . إنني لست قاصرا .

جذبته ناحية البيت . ولكنه انتزع نفسه وأخذ يهبط السلالم .

صاحت في الردهة : جوزيف . ارجع هنا . وإلا ذهبت إلى غرفتك الليلة . عاد إلى البيت وأغلقت وراءه الباب .

ـ ماما ، أنت تزيدين الأمر سوءا . لست أتضور جوعا . مازال معي بعض النقود . ولو كنت بهذا الحد من الجوع لالتحقت بأي عمل . كل ما أريد هو فرصة لكي أجد عملا أحترم فيه نفسي .

شهقت في صوت خفيض ، خشن ، وهي تحدق في عينيه : أنت جائع ، تتضور جوعا . انظر إلى وجهك . أنت تموت من الجوع .

كان صوتها مشوباً بالرحمة ، متضرعا . وكان وجهها مضرجا ، مشدوداً في حنو ، في فجيعة . لم يستطع إلا أن يحول وجهه عنها .

ـ لست جائعا يا أمي . لماذا لا تريدين أن تجعلي كل شيء معقولا؟ . عندما

أحتاج نقودا سأطلب منك . لا تقلقي . أنا رجل ، وأنا قوي . لماذا تمتهينني بهذه الأساليب الصبيانية؟ . سوف تجعلين مني منافقا خداعا . الكلمات لا معنى لها عندك . أحاول أن أقنعك وأقول لك : ماما ، لا ، لا أريد نقودا «وعندئذ تدفعين بالنقود في جيبي أو في حقيبتي فآخذها على أي حال . ليس هذا نظيفا . ليس فيه كرامة» .

ـ كـــــــرا . . . . . . مــة . .

كادت تتشنج بالكلمة ، باحتقار ويأس ، وأكملت .

ـ كفـى ، أوقف هذه الكلمة .

كان وجهها منهوكا ، يتفصَّد بالعرق ، وسدَّت الطريق إلى الباب .

ـ كرامة مع أمك؟ لا يمكن ، مع أمك؟ لا يمكن ، مع أمك . . .

قــال : عليك اللعنة .

واستدار وعاد ناحية المطبخ ، وقال :

ـ عندك عشر دقائق وأخرج من هنا . فإذا لم أخرج فلن أرجع هنا أبدا .

اتسعت عيناها وقالت : لن أتركك ترجع لو خرجت الآن .

ثم نظرت إلى عينيه مرة أخرى وهزت رأسها في كلال .

ـ اقعد . اقعد . انظر إلى هذا الأكل كله .

وأمسكت سلة من الفراولة كانت قد اشترتها له . وهي في طريقها للبيت . ورفعتها إليه ، تغويه .

ـ انظر إلى هذا بينما أنت تموت من الجوع . لماذا لا تأكل؟ .

ـ آه يا أمي . أنت لا تفهمين .

أخرج محفظته وقال : انظري . عندي هنا ثلاثة دولارات . تكفيني للأكل

يومين . سآتي أتعشى هنا يوم الاربعاء ، وأطلب منك خمسة دولارات لبقية الأسبوع . سأحصل على عمل غدا ، وأقبض الأجر يوم الجمعة .

ـ يا سلام . يا سلام . أنت شهيد . ماذا تفعل بثلاثة دولارات؟ .

ـ تأتي إلى هذا الآن؟ اتركيني أخرج وسأرجع بعد يومين عندما تكونين ، ربما ، تعلمت درسا .

صرخت ، وهي تمسك بسكين من المائدة : لا . سوف تبقى هنا . ووقفت أمام الباب والسكين في يدها .

ـ ألا تتركين لي أي كرامة؟ .

فقالت ، تفح : كرامة ، وليس معك نقود ، وأنت تموت من الجوع .

لم يكن هذا صحيحا ، ولكنها كانت تحدق إلى حلته الأنيقة النظيفة ووجهه المتسم بالكبرياء . المرأة فيها ، تمد ذراعي الأم المنافحة عنه المتحامية له ، رأت كبرياءه أمام الحياة ، بوضوح ، فلم يزدها إلا إيلاما .

كانت المرأة تحس : ما الكبرياء والكرامة من غير سلطان؟ .

ـ أنت تبالغين . أنال كفايتي من الطعام . أستطيع أن أعني بنفسي .

ـ تعني بنفسك؟ كان علي أن أساعدك في دفع ثمن هذه الملابس التي تلبسها . أنت عنيد . عنيد . لماذا لا تبقى للعشاء؟ لماذا لا أعطيك نقودا ، هذا مرضك . . أنك عنيد . سوف تقتل أحدا . أعرف أنك سوف تقتل أحدا ، وبعد ذلك تموت في غرفتك ، تموت من الجوع في قلب المدينة ولن يعرف أحد . سيكسرون الباب عليك ويجدونك ميتا في غرفتك . سوف تذهب للجانب الشرقي تلتقط أكلك من الزبالة ، بأصابع صفراء من النيكوتين ، ترتعش ، رأيت

هذا كله في الحلم ، رأيته في الحلم .

كان في عينيه دموع . لم يكن قد أحس أبدا بمدى قربه الوثيق منها كما يحسه الان . لكن ذلك كان نكوصا إلى الوراء في الزمن . وكانت هناك الوحدة المظلمة الرهيبة التي لم يكن أحد يشعره بها إلا أمه ، بما تستثيره من صور المعاناة العميقة . شعر بقوته تزايله ، كان حبها المخيف مثل الكابوس .

ـ ماما ، سأخرج الآن . ضعي هذه السكين . هل أنت مجنونة حقا؟ . أنا رجل .

سألت ، بحزن ، باحتقار ، بمرارة ، بحنو : رجل مع أمك؟ . لا . . لا . . ماذا تفعل؟ .

أسقطت السكين ، وأمسكته إذ كان يمر بها . وهاجمته . كان جسمها الكبير المتهدل المنهول العرقان يقبض عليه ، وعلى وجهها مظهر الخبل . كان وجهها منقبضا بالمعاناة والألم . وجحظت عيناها ، وهي تسأل في وهن : آه . . ماذا تفعل بي؟ أنت أسقمتني . كفى . فليكن . فليكن . هذا درس . فليبدأ الدرس ، وينته الآن ، ثم تقعد لتأكل . لن أفعل هذا أبدا مرة أخرى . ولكن اقعد ، وكُل . اقعد ، وكُل . .

وقد أصبحت هذه الأكلة كل شيء . كانت هذه الأكلة قوتها ، وحمايتها له . كانت هذه الأكلة حبها ، وعطيتها لهذا الابن المتكبر الذي ما كان أجمل أن تنظر إليه ، إلى هذه الكبرياء والكرامة فيه ، ولكنه كان بلا قوة ، ولا سلطان .

ودفعها عنه ، وأخذ ينزل السلالم . أمسكت به ، وصرخت عاليا في الردهة انتظر يا جوزيف . . إذا ذهبت سآتي معك .

لكنه كان قد عاد للبيت مرة أخرى كان يمسك بصحيفة وقد لفها حتى أصبح الورق عصا مدورة صلبة في يده . قال وهو ينشج باكيا : ماما . . ماذا تضطرينني أن أفعل بك؟ .

ـ انتظر يا جوزيف . اقعد . من فضلك؟

كان صوتها منهكا ، يبكي : لن يحدث هذا مرة أخرى ، أبدا . اقعد . لماذا أنت عنيد؟ .

كانت تمسك بذراعيه . ذراعاها الثقيلتان . النديتان بالعرق ، واللحم المتكتل مهدل كثيفا فوق مرفقيها ، كانتا تسحقانه .

ضربها على رأسها بالورق ، بعنف .

ـ ماما . . ماما . . ماذا تضطرينني أن أفعل بك؟ .

وضربها مرة أخرى ، وأخرى .

وهو ينشج بالبكاء : ماما . . يا أنانية . . يا بنت الكلب . .

كانت تبكي : أنت قتلتني . . أنت قتلتني . . وأنا مهمومة بك ليل نهار .

قال ، كاذبا : هذه هي الحكاية كلها لماذا تعذبين نفسك بي؟ . أنا سعيد . وأحب الحياة التي أحياها . عذابك وحده هو الذي يشقيني .

فتضرعت إليه : طيب اقعد ، إذن . اقعد .

كانت تمسك برأسها ، وبينما كانت تتكلم ذهبت إلى حوض الحمام . غمست منديلها في الماء ووضعت الخرقة المبللة على جبينها .

كان يحب يديها اللتين اشتغلتا من أجله . ويحب وجهها ، وقدميها المتعثرتين الآن وقد وقفت الآن ، في حماقة ، على أهبة الوثب لتسدَّ عليه الباب . كان يحبها أيضا من أجل الدولارات القليلة التي تحاول أن تهبها إياه .

ووجد نفسه ينتفض بالنفور من قرب جسمها إليه . لم يكن يطيق يديها عليه . أحس أن لحمها قبيح . ونظر إلى وجهها ، برقة وحنو ومرارة . .

ـ ماما ، ماذا اضطررتني أن أفعل؟ . فلننس هذا اليوم الفظيع . ولكن يجب أن أذهب . وإلا ما حدث أي تغيير .

أخذت تتشنج بانكسار وهي تحتضنه . فضربها مرة أخرى وأخرى ، على رأسها حاولت أن تقي نفسها ، الآن ، كحيوان خجول ، مطارد ، وهي تقعد تحت الحائط ، ويداها فوق رأسها .

ـ ماما . . ماذا تضطرينني أن أفعل؟ .

ضربها حتى تفكك الورق مزعا مهتزة متطايرة في يده .

لكنها نهضت ، تبكي ، وأمسكته إذ كف عن ضربها ، وضربته بيديها حتى لا تتركه يمضي .

دفعها إلى الحائط ، وصورة رأسها المحنية وهي تحاول أن تقي نفسها من ضرباته ، محدورة في ذهنه . وجرى إلى الباب .

شهقت بالبكاء : سأصرخ في الردهة . سأصرخ في الردهة . وسآتي الليلة إلى غرفتك .

جرى مبتعدا عن البيت ، يبكي بانطلاق ، لا يلحظ أحدا من المارة .

سوف يجد النقود بعد ذلك في غرفته ، أما في تلك اللحظة فقد كان يحس أنه على استعداد أن يموت في سبيلها .

وأسرع ، وزاد في سرعته ، يبتعد عن البيت .

ارســكيــن كالدويـــل

●

عندما قرأت «طريق التبغ» وأنا في السادسة عشرة ، سحرني من ارسكين كالدويل تصويره للتدهور الإنساني تصويرا يؤكد كبرياء كامنة لا ينال منها الفقر المدقع ولا ضنك الاحتياجات الجسدية البحتة ، في عالم الجنوب الأمريكي ـ وخاصة في أراضي القطن في جيورجيا ، حيث الحرارة ليست فقط في الأرض أو السماء بل في لحم الجسد . من رواياته الهامة «فدان الله الصغير» و«بيت في المرتفعات» و«أرض فاجعة» .

ولد كالدويل في ١٩٠٣ ، في جيورجيا .

رجل وامرأة

كانا يصعدان على الطريق ببطء ، في الفجر الذي لا لون له ، كأنهما ظلال تركها الليل خلفه . لم يكن في جسميهما حركة ، إلا أن أقدامهما كانت تكحت التراب ، وتثيره ، فيستقر خلفهما بسرعة بعد أن كان قد ارتفع معهما . وكانا يرفعان أعينهما في كل خطوة يخطوانها ، يحدقان للأفق ، يتلسمان ببصرهما الأشعة الحمراء الأولى للشمس .

كانت المرأة تصر بشفتها السفلى على أسنانها . وكان ذلك يوجعها ، لكنها كانت الطريقة الوحيدة التي تحث نفسها إلى الأمام ، خطوة فخطوة . لم تكن هناك طريقة أخرى لكي تجر إحدى قدميها خلف الأخرى ، ميلا بعد ميل ، وكانت تتهنه باكية بين الحين والآخر ، لكنها لم تنشج بالبكاء .

قال رينج : نقف الآن ، نستريح قليلا .

لم تجبه .

وواصلا السير .

وعند قمة التل جاءا وجها لوجه قبالة الشمس .

كانت الشمس قد انبثق ربعها من حافة الأفق ، وكان الأفق الذي لا شجر فيه يقطعها كما لو كان سكينا . وكان الوادي يمتد تحتها ، تحت غطاء من الضباب يرتفع ببطء من الأرض . وكان باستطاعتهما أن يريا بيوتا ومزارع إلا أن معظمها

كان من البعد بحيث يتعذر التفريق ، في الضباب ، بين بعضها بعضا . وكان الدخان يرتفع من مدخنة في أول بيت .

نظرت روث إلى الرجل بجانبها . أشعة الشمس الحمراء قد أخذت تلون وجهه الشاحب بلون الدم . إلا أن عينيه مجهدتان ، لا حياة فيهما ، يلوح كأنه يقف مهتزا على قدميه ، يبذل مجهودا كبيرا ، كما لو كان سوف يفقد توازنه على الفور ، ويسقط على الأرض .

قالت : سنستطيع أن نحصل على شيء نأكله في أول بيت .

وانتظرت إجابته لحظة .

ثم أجابت ، بدلاً منه : سنحصل على شيء هناك ، بالتأكيد .

ارتفعت الشمس من الأفق ، سريعة ، حمراء ، تطفو على وجهها خطوط من السحب المعبرة كأنها طبقات من دخان الغابات . وما أن ارتفعت الشمس حتى انكمشت ، فأصبحت زرا ناريا صغيرا يكوي العيون ، وعاد من المستحيل النظر إليها .

قالت روث : سنحاول ، على أي حال .

نظر إليها رينج في ضوء النهار الصافي ، يراها لأول مرة منذ غربت الشمس في الليلة الماضية . كان وجهها أكثر شحوبا ووجنتاها أكثر نحولاً وبروزا .

ودون كلمة بدأ ينزل سفح التل . لم يُدر رأسه ليرى ما إذا كانت تتبعه ، لكنه مضى ينزل الطريق يجري إحدى قدميه خلف الأخرى ، ويطوحها أمامها بكل ما فيه من قوة ، لم تكن عنده ثمة طريقة أخرى ليدفع نفسه للحركة على الأرض .

وقف أمام البيت ، ينظر إلى الدخان الذي يطفو فوق رأسه ، حتى لحقت به .

قالت : سأدخل وأحاول . أجلس أنت يا رينج ، واسترح .

فتح فمـــه ليقول شيئا ، لكن حلقه غص بالكلمات ، ولم يقل شيئا . نظر إلى البيت ، بعتبته البالية ، ونوافذه المسدلة الستائر ، ومدخنته التي يخرج منها الدخان ، ولم يشعر شعور الغريب في بلد غريب طالما كان ينظر إلى هذه الأشياء المألوفة .

دخلت روث من الباب الخارجي ، دارت حول البيت ، ووقفت على باب المطبخ ، نظرت خلفها فرأت رينج يأتي من الطريق ، يعبر الفناء .

كان هناك من يرقبهما خلف ستارة من وراء الشباك .

قال رينج : اطرقي الباب .

ضمت مفاصل أصابع يدها اليمنى ، وأخذت تدق على ألواح الباب حتى بدأت يدها توجعها .

استدارت ورمقت رينج بسرعة ، فأنغص رأسه .

انفتح باب المطبخ بضع بوصات ، وكان من الممكن أن ترى رأس امرأة تطل من خرق الباب . كانت في أواسط العمر ، سمراء الوجه ، على جبهتها ندبة طويلة غليظة تبدو كما لو كانت قد تخلفت عن انفجار برطمان فاكهة .

وقالت : امشوا من هنا .

أجابت روث ، بأسرع ما تستطيع ، لن نضايقكم في شيء ، كل ما أردنا أن نسأل هل تستطيعون أن تعطونا شيئا قليلا نأكله . بطاطسة واحدة ، إذا كان عندكم ، أو قطعة خبز ، أو أي شيء .

قالت المرأة : ماذا تفعلان هنا . لا أحب أن أرى الغرباء حول بيتي .

وأوشكت أن تغلق الباب ، لكن الفتحة اتسعت بعد لحظة ، وأصبح من الممكن أن يرى وجهها مرة أخرى . وقالت في النهاية : سوف أعطي البنت طعاما ، لكن لن أعطي الرجل شيئا . ليس عندي ما يكفي لكما أنتما الاثنين ، على أي حال .

استدارت روث بسرعة ، وكعبها يحفر في الأرض الرملية ، ونظرت إلى رينج ، فأومأ برأسه ، متلهفا ، بالموافقة .

كاد يرى الكلمة تتكون على شفتيها وإن لم يسمعها . هزت رأسها .

خطا إليها رينج عدة خطوات .

قال : لا . ادخلي أنت . كلي ما تعطيه لك . سأجرب أنا في البيت التالي .

كانت ماتزال تستنكف دخول البيت من غيره . فتحت لها المرأة الباب ، قليلا ، وانتظرتها حتى تصعد الدرجات القلائل .

جلس رينج على مقعد مستطيل تحت الأشجار .

وقال : سأجلس هنا وأنتظر حتى تدخلي وتأخذي شيئا تأكلينه .

صعدت روث الدرجات ببطء حتى الشرفة ، دخلت من الباب .

عندما دخلت أشارت لها المرأة إلى كرسي بجانب مائدة ، فجلست روث .

كان هناك بطاطس مسخنة من الليلة التي فاتت ، وبسكوت بارد . وضعت المرأة ذلك على المائدة ، أمامها ، وسكبت فنجانا من القهوة الساخنة ووضعته بجانب الطبق .

أخذت روث تأكل بأسرع ما تستطيع ، تشرب القهوة السوداء الساخنة ، وتمضغ البطاطس والبسكوت ، بينما وقفت المرأة السمراء خلفها على الباب ، حيث تستطيع أن تراها وأن تراقب رينج ، في الوقت نفسه .

تمكنت روث مرتين من أن تخفي قطعا من الخبز في بلوزتها ، وأمكنها أخيرا أن تضع نصف حبة بطاطس في جيب قميصها ، وكانت المرأة تحدجها البصر في شـــك ، عندما لم تكن ترقب رينج في الفناء .

سألتها المرأة : تذهبان بعيدا؟ .

أجابـت روث : نعــم .

ـ منْ هذا الرجل الذي معك؟ .

فأخبرتها روث : زوجـــي .

نظرت المرأة إلى الفناء مرة أخرى ثم نظرت إلى روث . لم تقل شيئا فترة من الزمن . حاولت روث أن تضع قطعة أخرى من البطاطس في جيب قميصها ، لكن المرأة كانت ترقبها بانتباه أحدَّ من أي وقت .

قالت المرأة : لا أصدق أنه زوجك .

أجابت روث : إنه زميلي . ولكنه زوجي ، حقا .

ـ لا يمكن أن أدعوه زوجا صالحا يتركك تمشي في الريف وتشحذين الطعام .

قالت روث بسرعة : لأنه مريض .

وأمالت كرسيها لتواجه المرأة .

ـ كان مريضا ، راقدا في السرير خمسة أسابيع ، قبل أن نطلع .

ـ ولماذا لم تبقوا حيث كنتم بدلا من أن تطلعوا في الخلاء كالمتشردين ، ألا يمكنه أن يبقى في الشغل؟ أم أنه لا يريد أن يشتغل؟ .

قالت روث ، وهي تسقط الخبز في يدها .

ـ أشكرك على الأكل . أذهب الآن .

قالت المرأة : اسمعي نصيحتي . اتركي هذا الرجل في أقرب فرصة . إذا

كان لا يريد أن يشتغل فأنت حمقاء لو أنك . . .

قاطعتها روث : كان عنده شغل . لكنه مرض ، جاءته حُمَّى .

ـ لا أصدقك . أظن أنك تكذبين لكي تداري عليه .

ذهبت روث إلى الباب وفتحته بنفسها ، وخرجت . استدارت وهي على الشرفة ، ونظرت إلى المرأة التي أعطتها شيئا تأكله .

سألتها المرأة : إذا كان مريضا في السرير ، كما تقولين ، لماذا قام وراح يدور كالمتشردين ، من غير أن يكون معكما ما تأكلان؟ .

رأته روث جالسا على المقعد الطويل تحت الشجر ، لم تكن تنوي أن ترد على المرأة ، لكنها لم تملك إلا أن تقول شيئا :

ـ طلعنا لأن أختي أرسلت لنا خطابا أن البنت ماتت . بنتنا . في الأول ، عندما مرض زوجي ، أرسلت البنت لأختي . نذهب الآن نرى تربتها .

نزلت جريا على الدرجات القليلة ، وعبرت الفناء بأسرع ما تستطيع .

عندما وصلت إلى ركن البيت نهض رينج وتبعها إلى الطريق . لم يقل أحدهما شيئا . لكنها لم تملك إلا أن تنظر خلفها للبيت حيث كانت المرأة ترقبهما من فتحة الباب .

بعد أن سارا أكثر من مائة قدم ، فكّت روث بلوزتها وأخرجت قطع الخبز التي أخفتها . أخذها رينج منها ، دون كلمة . وبعد أن أكل ما كان لديها أعطته البطاطس ، أكلها بجوع ، وهو يحدثها بعينيه ، بينما يمضغ ويبلع .

كانا قد سارا حوالي نصف ساعة قبل أن يتكلم أيهما .

قالت روث : امرأة عجوز بخيلة . لو لم يكن من أجل الطعام كنت قمت ومشيت من الأول .

لم يقل رينج شيئا ، فترة طويلة .

كانا قد بلغا مهد الوادي وأخذا يصعدان السفح على الجانب الآخر قبل أن يتكلم مرة أخرى :

ـ ربما لو عرفت إلى أين نذهب ما كانت رديئة هكذا معك .

خافتت روث بشهقة ، وهي تغص ببكائها .

ـ كم بقي حتى نصل؟ .

ـ ربما نحو ثلاثين ، أربعين ميلا .

ـ نصل غدا؟ .

فهز رأسه .

ـ بعد غد؟ .

ـ لا أعرف .

سألته وقد عجزت عن أن تكف النشيج الذي كان يخنق حلقها وصدرها :

ـ يمكن أن نصل الليلة ، إذا عثرنا على أحد يوصلنا بسيارة؟ .

قال : نعــم . إذا عثرنا على أحد يركبنا ، نصل مبكرا .

أدار رأسه ورمق الطريق النازل خلفهما . لم يبد شيء لناظره . ثم نظر إلى الأرض التي كانا يسيران عليها ، يعد الخطوات التي يخطوها بقدمه اليمنى ، ثم بقدمه اليسرى .

وليم سارويان

وليام سارويان كاتب أمريكي من أصل أرمني . وفي جملة كتاباته تتوهج فكاهة مرة وسخرية لاذعة بأوضاع الحياة الأمريكية ، ولكنها فكاهة نابعة عن حب عميق مخلص لصغار الناس . ولد سارويان في ١٩٠٨ ، في فريزند ، كاليفورنيا . اشتغل عاملا متجولا ، وساعي تلغراف ، وعمل في مزرعة العنب التي كان يملكها عمه . لم يكمل قط تعليمه في المدارس ، ونشرت أولى قصصه ـ وهي مشهورة ـ «الرجل الجسور على شبكة الترابيز» في ١٩٣٤م . أما قصته «ليلة بعيدة» فتمتاز عن جملة قصصه بنفس شاعري غريب مرهف يمسّ القلب ، وفيها تأمل داخلي وحسّ بفاجعة مصير يقود الطموحُ صاحبه ، فيخدعه عن نداءات النفس العميقة من أجل مجرد المحبة ، ويدفعه وراء الجري نحو قيمة زائفة ، نحو حياة كالموت ، في نيويورك وغيرها من مدن الصلب والحجر والأسفلت .

التقيت بوليم سارويان في السبعينات ، أثناء أحد مؤتمرات الكتاب الأفريقيين الأسيويين في مانيلا ، عاصمة الفلبين ، كان قد شاخ لكن فيه فتوة الأرمن وقامتهم العفية ، كان قد أصيب بالصمم ، وأوشك أن يكون معزولاً عن العالم ، وعنا ، وكأنما فرض عليه نوع من الاعتكاف إلى ذات نفسه .

ليلة بعيدة

كان ذلك يوما من أيام الضباب وذكريات الأوقات القديمة والأغنيات القيمة . ومكثت في البيت طوال بعد الظهر ، أصغى للأغنيات . وكانت العتمة سائدة وتذكرت أغنية أنشدتها مرة لفتاة في الأوتوبيس .

ها قد كنا هناك برهة من الوقت ، متحابين . ولكن الأوتوبيس وصل إلى «توبيكا ! ، ونزلت هي ولم أرها أبدا مرة أخرى . في منتصف الليل عندما قبلتها أخذت تبكي وأحسست أنا بمرض الحب . تلك كانت ليلة صبية من ليالي أغسطس ، وكنت في طريقي إلى نيويورك للمرة الأولى في حياتي وأحسست أنا بالمرض لأنني كنت في طريقي ، وكانت هي في طريقها .

وطوال هذا اليوم الذي كان من أيام الضباب جلست في البيت أذكر كيف تأخذ حياة إنسان طريقا ، وتأخذ كل حياة أخرى طريقا آخر ، كل يسلك طريقه ، ولابد أن عددا من الشبان ، والصبايا يموتون ، طوال الوقت ، عددٌ منهم يأخذون طريقهم ، ويموتون . . فإذا لم ترهم مرة أخرى ، فهم قد ماتوا ، حتى ولو كان العالم صغيرا ، حتى لو رجعت ثانية وبحثت عنهم واحدا واحدا ووجدتهم ، فسوف تجدهم قد ماتوا ، لأنه أيا كان الطريق الذي يتخذه أي منهم ، فهو طريق مميت .

وصل الأتوبيس إلى «توبيكا» ونزلت هي ، ودارت حول الناصية ، ولم أرها

أبدا مرة أخرى . رأيت كثيرات غيرها ، فيهن من تضارعها جمالا ، ولكني لم أر أبدا من يشبهها ، أبداً من لها ذلك الأسى وتلك الروعة في صوتها ، أبدا من بكت كما كانت هي قد بكت . . ولن تكون أبداً ليلة أخرى مثل ليلتها . وقد تكون هي نفسها قد صارت الآن أروع جمالا ، ولكنه لن يكون أبدا مرة أخرى ذلك الأسى في الليل ، ولن تبكي هي مرة أخرى ، أبداً ، ولا غيرها ، كما بكت ليلتها .

ولن يحس رجل أبدا عندما يقبلها ذلك المرض من الحب الذي أحسسته ليلتها . كل ذلك كان في ليلة قد ضاعت ولن يعثر عليها أحد مرة أخرى أبداً . وكل ذلك إنما يرجع إلى قرون من الأحداث الصغيرة ، كلها تافهة ، كلها من غير دلالة ، وكلها أفضت بها إلى المقعد الذي كان بجواري في الأوتوبيس ، وكل الأحداث الصغيرة التي وضعتني هناك ، بانتظارها .

جاءت وجلست بجواري ، وعرفت أن انتظار كل السنين إنما كان من أجلها هي ، لكنها نزلت في «توبيكا» بقيت في مكاني ، وبعد ثلاثة أيام كنت في نيويورك .

هذا كل ما حدث ، إلا أن بضعة من نفسي ما زالت هناك ، في تلك الليلة الأمريكية الدافئة البعيدة . وعندما أمست عتمة النهار هي عتمة الليل ، وضعت قبعتي على رأسي ، وغادرت البيت ومشيت في الضباب ، إلى المدينة ، وقلبي يتبعني كأنه كلب كبير صبور . وفي المدينة وجدت بعض الموتى الذين هم أصدقائي وأكلنا وشربنا وتحدثنا وغنينا ونحن نضحك ضحكا أكثر إيذاء وأكثر مواتا من أشد البكاء مرارة . وكل ما تذكرته هو روعة ما كان في بكائها هي من جمال لأن سنوات الأحداث الصغيرة جمعت بيننا وحماقة قلبي كانت تهيب بي أن أبقى معها ولا أذهب إلى أي مكان فليس هناك ثمة مكان أذهب إليه .

وليـــم فولكـــنر

●

أعمال وليم فولكنر لها جوهرها الخاص ، هي تجارب عاشها الكاتب وتمثلها فكأنه يتذكرها كما حدثت بالفعل ، وليست كتابات صنعها أو رآها ثم وضعها على الورق . . هنا ، نجد أن مواطن القوة ومواطن الضعف ، في الإنسان ، والخير والشر ، والمتناقضات سلباً أو إيجاباً كلها متحدة ممتزجة بغير انفصال متساوية في الجوهر ، هي كما يقول فولكنر : مشاكل القلب الإنساني (المنقسم على ذاته) في صراع ذاته . أول ما يتبادر للذهن عند الكلام على فولكنر هو ارتباطه الحميم بأرضه ، حبه لها ، وقيامه على جذور ضارية في غورها . وأرضه بالطبع هي تلك التي سميت عنده «بلاد يوكناباتا فوا» منطقة شمال المسيسبي التي ولد فيها ، عام ١٨٩٧ (إذ كان ذلك في نيوألباني) وقضى معظم حياته فيها ، حتى مات في اكسفورد ، في هذه البلاد نفسها ، أيضا عام ١٩٦٢ . وكان أجداده مزارعين أثرياء قضت على ثروتهم الحرب الأهلية الأمريكية ، ولكنها لم تقض على مجدهم . وهؤلاء الناس هم أبطاله وأشخاص تجربته الفنية الفريدة ، يعرفهم ، ويفهم تقاليدهم ، ويعيش صراعاتهم . «يخلق من مادة الروح الإنساني شيئا لم يكن يوجد من قبل ، كما يقول» .

هذا العالم حاشد بناس فيهم خشونة خام جافية ، بل هم أحيانا مسوخ لا نعرف هل نصفهم بالتحلل أم بالبدائية . وهم على انغمارهم في عجينة القدر الإنساني ، لهم من القوة ما يتسامى على هذا القدر ، كأنها قوة تنبثق من الله ، كما يقول الكاتب الفرنسي مارسيل ايميه ، هذا روائي ينشد الله ، إذ يرتفع إليه طالعا من غور أدنى الغرائز وأشدها ابتذالا ، والله عنده هو إله التوراة الحق بكل جبروته وعنفه وغضبه . فكأن فولكنر قد احتفظ بحس ديني متوحش متطهر خالص .

وأسلوبه الذي يدخل في متاهات من الغموض ، أحيانا ، يصل إلى حد الاستعصاء على الفهم ، إنما ينبع أساسا من سمات هؤلاء الناس ، وجوهرهم ، من الدفء الرطب ، والسر ، ونصف العتمة الدينية التي يتحركون في غمارها «في عذاب الروح الإنساني وعرقه» .

لم يدرس فولكنر دراسة منتظمة ، أبدا ، وعلى أنه تابع الدراسة الثانوية والجامعية ، على

دأب ، فإنه لم يتخرج قط من مدرسة ، وقد رفضه الجيش الأمريكي في الحرب العالمية الأولى ، ولكنه التحق بسلاح الطيران الكندي ، طيارا ، وسقطت به طائرته في فرنسا ، وجرح . ثم اشتغل بعد ذلك في أعمال شتى : نجارا ونقاشا وناظر بريد ، وكتب روايته «في نزع الاحتضار» وهو يعمل عتالا للفحم في محطة نيو اورليانز الكهربائية ، في الليل ، بين منتصف الليل والساعة الرابعة صباحا . ومنح فولكنر كما هو معروف جائزة بوليتزر ، وجائزة نوبل للأدب عام ١٩٤٩ . وقال في خطاب قبوله للجائزة :

«إن الكاتب . . يجب أن يعلم نفسه ، إن الخوف هو أحقر الأشياء . فإذا تعلم ذلك فعليه أن ينساه إلى الأبد ، وألا يترك فسحة في معمله إلا لما صدق القلب عليه نفسه من قديم ، للحقائق العالمية القديمة التي بدونها تصبح كل قصة شيئا عرضيا زائلا ومقضيا عليه : الحب والشرف والرحمة والكبرياء والعطف والتضحية» .

هذا الكاتب الجنوبي «السلفي» هو أيضا كاتب ثوري أصيل الثورية . الصدق عنده ، والجرأة ومجابهة الشر وحب الناس ، كما هم ، بخبثهم وطهرهم ، قيم فنية ثورية .

وردة لـ: أميلـي

عندما ماتت اميلي جريرسون ذهبت بلدتنا كلها تشيع جنازتها : ذهب الرجال مدفوعين بشيء كأنه الحب والإجلال لنصب قد هوى ، وذهب النساء في الغالب ، فضولا إلى رؤية داخل بيتها الذي لم يره أحد منذ عشر سنوات على الأقل ، إلا خادم عجوز كان يقوم بعمل البستاني والطباخ معا .

وكان بيتا كبيرا يميل هيكله إلى التربيع ، وقد كان أبيض اللون في يوم من الأيام وتزينه قباب وأبراج وشرفات مدورة ملفوفة ، مبنيا على الطراز الخفيف الموحي بالثقل والذي كان شائعا في السبعينات ، ويقع في الشارع الذي كان أرقى شوارع بلدتنا ، في يوم من الأيام ، ولكن حظائر السيارات ومصانع حليج القطن اقتحمت الشارع وتطاولت عليه حتى محت أسماء البيوتات الجليلة في الجيرة ، ولم يبق إلا بيت مس اميلي يرفع البلى العنيد الغزل الذي حاق به ، عاليا فوق عربات القطن ومحطات البنزين ـ وسط سوآت تنبو عنها العيون .

وقد مضت الآن مس اميلي تلحق بممثلي هذه البيوتات الجليلة حيث كانوا يرقدون في الجبانة الذاهلة تحت أشجار الأرز ، بين القبور المصطفة للجنود المجهولين الذين سقطوا في معركة جيفرسون ، من جيوش الشمال والجنوب .

عندما كانت مس اميلي تعيش ، كانت تقليدا من تقاليد البلدة وواجهة من واجهاتها ، وهما تعني به : شيئا كأنه التزام وراثي على عاتق البلدة ، يعود إلى

ذلكم اليوم في عام ١٨٩٤ عندما أعفاها الكولونيل سارتوريس من الضرائب - وهو العمدة الذي تبنى المرسوم القاضي بألا تظهر امرأة زنجية في الشارع إلا مرتدية ميدعة .

ويبدأ هذا الإعفاء منذ أن مات والدها واستمر نافذا معمولا به أبدا . لم تكن مس اميلي لتقبل إحسانا أو صدقة من أحد ، ولذلك لفق الكولونيل سارتوريس حكاية معقدة مفادها أن والد مس اميلي كان قد أقرض البلدة مالا ، وأن البلدة آثرت هذه الطريقة في الوفاء بدينها ، باعتبارها مسألة عملية بحتة ما كان من الممكن أن يلفق مثل ذلك إلا رجل من جيل الكولونيل سارتوريس ومن نمط تفكيره ، وما كان من الممكن أن يصدقه إلا امرأة .

فلما أقبل الجيل الجديد بأفكاره الحديثة وأصبح منه العمد وشيوخ البلدة ، نجم عن هذا الوضع شيء من السخط . وأرسلوا لها في أوائل السنة إخطارا بدفع الضرائب بالبريد . وأقبل فبراير ، ولم يأت رد . فكتبوا لها خطابا رسميا يطلبون منها أن تمر على مكتب «الشريف» في الوقت الذي يلائمها . وبعد أسبوع كتب لها العمدة بنفسه ، يعرض عليها أن يزورها أو أن يرسل سيارته إليها ، فتلقى ردا على ورق عتيق الشكل ، بخط رقيق ينساب وبحبر باهت يقول فيه إنها لم تعد تخرج من البيت على الإطلاق . وكان إخطار الضرائب مرفقا بالرد ، دون تعليق .

عقدوا اجتماعا خاصا لهيئة شيوخ البلدة . وذهب وفد منهم يزورها ، وطرقوا الباب الذي يمر منه زائر بعد أن كفت عن إعطاء دروسها في الرسم على الصيني ، منذ ثماني أو عشر سنوات . واستقبلهم الزنجي العجوز ، وأفضى بهم إلى قاعة معتمة يرقى منها درج يغيب في عتمة أكثف ظلالا وتفوح منها رائحة

التراب وطول العهد بالإهمال ، رائحة وثيقة آسنة عطنة . وأفضى بهم الزنجي إلى الردهة . وكانت مؤثثة بأثاث ثقيل مغطى بالجلد . ولما فتح الزنجي ستائر إحدى النوافذ ، كان باستطاعتهم أن يروا الجلد مشققا . ولما جلسوا ارتفع تراب عين خامل حول أفخاذهم ، يدور فيه هباء بطيء في شعاع الشمس الوحيد . وكانت هناك لوحة بالفحم لوالد مس اميلي ، على حامل مذّهب صديء .

وعندما دخلت نهضوا واثقين ـ امرأة صغيرة القد بدينة ، ترتدي السواد ، تتدلى سلسلة ذهبية إلى وسطها وتغيب في حزامها ، وكانت تستند إلى عصا من الأبنوس لها مقبض ذهبي صديء . كان هيكلها صغيرا زهيدا ، ولذلك فإنّ ما يبدو عند غيرها مجرد ملاءة في الجسم كان عندها بدانة . كانت تلوح منتفخة متورمة كأنها الجسم غمرته مياه ساكنة أمداً طويلا ، وكان لها نفس اللون الشاحب المصفر . وكانت عيناها ضائعتين في حواف وجهها اللحمية ، تبدوان كقطعتين من الفحم مضغوطتين في كتلة من العجين ، إذ تتحركان من وجه إلى آخر بينما الزوار يشرحون المهمة التي جاءوا في سبيلها .

لم تطلب إليهم أن يجلسوا . بل وقفت في الباب وأصغت هادئة حتى انتهى قائلهم إلى صمت متعثر مرتبك . وعندئذ كان بوسعهم أن يسمعوا الساعة غير المرئية تدق في طرف السلسلة الذهبية .

لم نقل عندئذ إنها قد أصيبت بلوثة . كنا نعتقد أنه كان لزاما عليها أن تفعل ذلك سوقا . كنا نذكر الشباب الذين طردهم أبوها جميعا ، وكنا نعرف أنها إذ لم يبق لها شيء فإنها سوف تتعلق بذلك الذي سلبها كل شيء ، فذلك من دأب الناس .

ومرضت زمنا طويلا . وعندما رأيناها مرة أخرى كان شعرها قصيرا

مقصوصا ، يكسبها مظهر بنت صغيرة ، فيها شبه غامض بهذه الملائكة في النوافذ الملونة بالكنائس ـ كان فيها شيء من الفاجعة ومن السكينة والسلام .

وكانت البلدية قد وقعت لتوها عقود تعبيد أرصفة البلدة ، وشرع في العمل صيفا بعد موت والدها .

وأقبلت شركة الطرق ومعها الزنوج والبغال والآلات وريس عمال اسمه هومر بارون ، من الشمال ـ رجل ضخم ، أسمر ، خدوم جهير الصوت وعيناه أرق لونا من وجهه . كان الصبيان يتبعونه أفواجا ليسمعوه وهو يسب الزنوج ، والزنوج يغنون على إيقاع معاولهم وهي تعلو وتهبط .

وسرعان ما تعرف إلى الناس جميعا في البلد . وأينما سمعت ضجيج الضحك في أي مكان في الميدان كان هومر بارون هو مركز الجماعة . ومن ثم أخذنا نراه مع مس اميلي في أصائل أيام الآحاد يسوقان العربة ذات العجلات الصفر وزوج الخيل الصهب المختارة من إسطبل الإيجار .

سـرّنا في البداية أن مس ايملي قد وجدت ما يشوقها ويهمها ، ذلك أن السيدات كن يقلن جميعا : «بالطبع إن سليلة آل جريرسون ما كانت لتولّي رجلا من الشمال اهتماما جديا ، عاملا باليومية» . على أنه كان هناك آخرون ، ناس أكبر سنا ، قالوا إن الحزن ما كان لينسي سيدة حفنة التزامات الأصل العريق دون أن يطلقوا عليها كلمة التزامات الأصل العريق ، بل كانوا يقولون فقط : مسكينة ايملي . ينبغي أن يأتي إليها أقرباؤها «كان لها بعض الأقرباء في ألاباما ولكن أباها كان قد اختلف معهم منذ سنوات بصدد ضيعة السيدة ويات العجوز ، المرأة المجنونة ، ولم يكن ثمة صلة بين العائلتين . بل لم يكن لهم ممثل في الجنازة .

وما أن بدأ الشيوخ يقولون : «مسكينة اميلي» حتى بدأ التهامس . كانوا يقولون أحدهم للآخر : أتظن أن الأمر كذلك حقا؟» «بالطبع . وإلا ماذا يمكن أن يكون» يقولونه من وراء أيديهم ، مع لفيف الحرير والدمقس المشرئب خلف خصاص النوافذ المغلقة على شمس أصيل يوم الأحد إذ يمر سروج الخيل المختار في خبب سريع نحيل «مسكينة اميلي» .

كانت مرفوعة الرأس ـ حتى عندما كنا نظن أنها قد انحدرت – كأنما كانت تطلب بإلحاح أشد واكثر من أي وقت مضى الاعتراف بعزتها على اعتبار ها آخر سلالة آل جريرسون ، كأنما كانت تريد تلك اللمسة الأرضية حتى تعيد تأكيد مناعتها واستعصائها . كما حدث ذلك عندما اشترت سم الفأر ، الزرنيخ . كان ذلك بعد أكثر من سنة بعد أن بدأوا يقولون : «مسكينة اميلي» وبينما كان يزورها بنتا عمها .

قالت للصيدلي : أريـد سمـــا .

كانت قد تجاوزت الثلاثين من عمرها عندئذ ، وما زالت امرأة ناحلة وإن كانت أكثر هزالا من المألوف ، عيناها الباردتان النجلاوان المترفعتان في وجه قد شد لحمه على صفحتي الجبين وحول المحجرين كما تتصور ما ينبغي أن يبدو وجه حارس فنار . قالت : أريد سما .

ـ نعم يا مس اميلي . من أي نوع؟ للفيران ونحوها؟ أوصي بـــ . . .

ـ أريد أفضل ما عندك . لا يهمني من أي نوع .

فذكر الصيدلي أسماء سموم كثيرة .

ـ إنها تقتل أي شيء ، حتى لو كان فيلا ، ولكنك تريدين . . .

قالت مس اميلي :

ـ زرنيخ ، أهذا اسم جيد؟ .

ـ ا . . . زرنيخ؟ نعم يا سيدتي . ولكن الذي تريدين هو ـ

ـ أريد زرنيخا .

نظر إليها الصيدلي من فوق . فردت إليه البصر قائمة العود ، وجها لوجه كأنه راية مشدودة . قال الصيدلي :

ـ نعـــم ، بالطبع . إذا كان هذا ما تريدين . ولكن القانون يقضي أن تبلغي فيما سوف تستخدمينه .

فلم تفعل مس اميلي إلا أن ظلت تحدق إليه ، ورأسها مدفوع إلى الخلف لكي تحدجه البصر ، عيناً في عين ، دون أن تطرف ، حتى أشاح بنظره ، ومضى فأتى بالزرنيخ ولفه . وذهب الولد الزنجي فسلمها اللفة ولم يعد الصيدلي إليها . فلما فتحت اللفة في البيت وجدت مكتوبا على العلبة ، تحت رسم الجمجمة والعظمتين : «للفيـــران» .

ومن ثم قلنا جميعا في اليوم التالي : «ستقتل نفسها» وقلنا إن ذلك هو خير ما تفعل . فعندما بدأت تظهر مع هومر بارون قلنا : «ستتزوجه» رحنا نقول «سوف تقنعه بعد» ذلك أن هومر نفسه كان قد قال إنه ليس رجلا مقبلا على زواج ـ كان يحب صحبة الرجال وكان من المعروف أنه يشرب مع الشبان في نادي «الالك» وبعد ذلك كنا نقول : «مسكينة مس اميلي» خلف خصاص النوافذ إذ كانا يمران في أصيل يوم الأحد في العربة المتألقة ، مس اميلي رافعة الرأس ، وهومير قد أمال قبعته إلى جنب ، والسيجار في أسنانه ، وهو يمسك بالعنان والسوط في يده المكسوة بالقفاز الأصفر .

ثم أخذ بعض السيدات يرددن أن ذلك عار على البلدة وقدوة سيئة

للشباب . لم يكن الرجال يريدون أن يتدخلوا ، ولكن السيدات في النهاية أرغمن القسيس المعمداني على أن يزورها ـ وإن كان قوم مس اميلي ينتمون إلى المذهب الرسولي ـ ولم يفش القسيس قط ماذا حدث خلال هذه المقابلة ، لكنه رفض أن يعود إليها . وفي الأحد التالي كانا يسوقان العربة مرة أخرى في شوارع البلدة ، وفي اليوم التالي كتبت زوجة القسيس إلى أقرباء مس اميلي في ألاباما .

ومن ثم كان تحت سقفها أقارب من ذوي رحمها مرة أخرى ، ورحنا نرقب التطورات . لم يحدث شيء في أول الأمر . ثم أيقنا أنهما سيتزوجان . وعلمنا أن مس اميلي قد ذهبت إلى الجواهري وطلبت طاقم زينة للرجال ، من الفضة ، وعلى كل قطعة الحرفان هـ .ب . وبعد يومين عرفنا أنها قد اشترت مجموعة كاملة من ملابس الرجال ، تشتمل على ثوب للنوم . فقلنا : «لقد تزوجا» وسـرّنا ذلك حقا . سرّنا ذلك لأن بنات العم كن أكثر غلواء في التمسك بتقاليد آل جريرسون مما كانت عليه مس اميلي نفسها في أي وقت .

ولذلك لم ندهش عندما ذهب هوبر بارون ـ كانت الشوارع قد فرغ رصفها منذ فترة من الوقت . وحبطت آمالنا شيئا ما إذ لم تكن هناك حفلة وداع عامة ولكن دار في أذهاننا أنه قد مضى لكي يتخذ الأهبة لمجيء مس اميلي ، أو لكي يتيح لها الفرصة أن تتخلص من بنات عمها . (فقد حال الأمر الآن إلى ما يشبه المؤامرة وكنا جميعا حلفاء لمس اميلي في أن نخذل بنات العم) ولم يخب الظن ، فبعد أسبوع كن قد سافرن . ولما كنا نترقب جميعا عاد هومر بارون إلى البلدة بعد ثلاثة أيام . رأى أحد الجيران الخادم الزنجي يدخله من باب المطبخ ، مساء ، في الغسق .

وكان ذلك آخر العهد بهومر بارون . وآخر العهد بمس اميلي ، فترة من الزمن . كان الزنجي يدخل ويخرج ومعه سلة المطبخ ، ولكن الباب الأمامي ظل مغلقا . وكنا بين الحين والحين نراها إلى النافذة لحظة ، كما رآها الرجال في تلك الليلة عندما رشّوا الجير ، لكنها احتجبت عن الظهور في الشوارع لمدة ستة شهور تقريبا . وعندئذ أدركنا أن ذلك هو ما كان ينبغي لنا أن نتوقع ، فكأن تلك الخصلة في أبيها ، تلك الخصلة التي أحبطت حياتها كامرأة مرات عدة كانت أعتى وأشد ضراوة من أن تموت .

وعندما رأينا مس اميلي مرة أخرى كانت قد امتلأت وأصبحت بدينة ، وكان شعرها قد وخطه الشيب . وفي خلال السنوات القليلة التالية أخذ شعرها يحول إلى الشيب أكثر فأكثر حتى بلغ لون الحديد الرمادي المتسق الذي يشبه الملح والفلفل . وحتى يوم موتها في الرابعة والسبعين من عمرها كان ما زال يحتفظ بذلك اللون الحديدي الذي يفيض بالحياة ، كأنه شعر رجل نشط .

ومنذ ذلك الحين ظل بابها الأمامي مغلقا ، إلا في فترة سنوات ست أو سبع ، عندما كانت في نحو الأربعين ، حينما كنت تعطي دروسا في الرسم على الصيني . جهزت مرسما في إحدى الغرف التحتية حيث كان يرسل إليها بنات وحفيدات معاصري الكولونيل سارتوريس وبنفس الانتظام وبنفس الروح الذي كن يرسلن به إلى الكنسية في أيام الأحد ومعهن قطعة من فئة خمسة وعشرين سنتا ليضعنها في طبق التبرعات . وفي أثناء ذلك كانت مس اميلي قد أعفيت من الضرائب .

ثم أصبح الجيل الجديد هو روح البلدة وعمودها الفقري ، وكبرت طالبات الرسم وتخلين عن الدروس ولم يرسلن بناتهن ومعهن علب الألوان والفرش

المملة والصور المقطوعة من المجلات النسائية . وأوصد الباب وراء آخرهن ، وبقي موصدا حتى النهاية .

وعندما حصلت البلدة على حق توزيع البريد دون مقابل ، كانت مس اميلي هي الوحيدة التي رفضت أن تسمح لهم بتثبيت الرقم المعدني على بابها وأن يركبوا عليه صندوق البريد . بل لم تقبل أن تسمع ما قالوا لها .

ويوما بعد يوم ، شهرا بعد شهر ، عاما بعد عام كنا نرقب الزنجي يشيب شعره ويزداد انحناء ظهره ، يدخل ويخرج ومعه سلة المطبخ . وفي ديسمبر من كل عام كنا نرسل لها إخطارا بدفع الضرائب ، يعاد إلينا عن طريق مكتب البريد بعد أسبوع ، دون سداد . وكنا نراها ، بين حين وآخر عند إحدى النوافذ التحتية - كانت قد أغلقت الدور العلوي من البيت فيما هو واضح - كأنها جذع منحوت لتمثال معبود موضوع في طاقته ، تنظر إلينا أو لا تنظر فما كان بوسعنا قط أن نتثبت من أيهما . وعلى هذا النحو مرت من جيل إلى جيل - قريبة إلى القلوب لا مهرب منها مستعصية منيعة ، هادئة وشاذة .

وعلى هذا النحو ماتت سقطت مريضة في البيت المليء بالتراب والظلال ، لا يرعاها إلا رجل زنجي يرتجف من الشيخوخة . ولم نعرف أنها كانت مريضة ، فقد تخلينا منذ زمن طويل عن أن نحاول استنباء الزنجي أي خبر على الإطلاق . فما كان ليتحدث إلى أحد ، ولعله لم يكن يتحدث إليها أيضا ، إذ كان صوته قد أصبح خشنا هادئا صدئا كأنما لطول العهد بالأغفال .

وماتت في احدى غرف الدور السفلي ، في سرير ثقيل من خشب الجوز له ستارة ، ورأسها الرمادي مسند إلى وسادة صفراء عفنة من القدم والافتقار إلى ضوء الشمس .

استقبل الزنجي أول فوج السيدات عند الباب الأمامي وأدخلهن ، بأصواتهن الموسوسة اللاتي يخافتن بها ، ونظراتهن السريعة الطلعة ، ثم اختفى . سار يخترق البيت كله وخرج من الخلف ، ولقد كان ذلك آخر العهد به .

وأقبلت بنتا العم على الفور . وأقامتا الجنازة في اليوم التالي ، وقد جاءت البلدة لتلقي نظرة على مس اميلي تحت أكوام من الزهور المشتراة ، ووجه أبيها المرسوم بالفحم مستغرقا في تأمل عميق فوق النعش ، والسيدات قاتمات المظهر يوسوسن بأصواتهن ـ والرجال الذين بلغوا من السن عتيا ـ وقد ارتدى بعضهم ملابسهم العسكرية القديمة بعد أن مروا عليها بالفرشاة ـ في شرفة البيت وفي الحديقة يتحدثون عن مس اميلي كما لو كانت من أترابهم ، وفي ظنهم أنهم قد راقصوها ولعلهم غازلوها وتحببوا إليها . يخلطون بين مراجل الزمن في تتابعه كالأرقام الرياضية فذلك دأب الشيوخ ، فليس الماضي كله عندهم طريقا متضائلا بل هو مروج شاسعة لا يمسها شتاء أبدا ، تفرقه عن الآن عنق زجاجة ضيق هو العقد الأخير من السنين .

وكنا نعرف من قبل أن ثمة غرفة في تلك المنطقة فوق لم يرها أحد منذ أربعين سنة ، ولا مناص من اقتحام بابها بالقوة . وانتظروا حتى ووريت مس اميلي التراب ، كما يليق ، قبل أن يفتحوها .

وبدا أن العنف الذي كسر به الباب قد ملأ الغرفة بالتراب الذي فشا وشاع فيها . ولاح أن غطاء جنائزيا رقيقا حريف الرائحة كأنه من القبر ، يستقر فوق كل شيء في هذه الغرفة التي كأنما أثثت وازدانت لليلة زفاف : فوق ستائر السرير بلونها الوردي الذابل ، فوق المصابيح بظلالها الوردية ، فوق مائدة الزينة ، فوق الآنية الرقيقة المصطفة من الكريستال ، وأدوات الزينة للرجال

المغلفة بالفضة الصدئة التي بلغ من صدئها أن طمست الحروف المنقوشة عليها . وبين هذه كلها ياقة وربطة عنق ، كأنما قد خلعت لتوها ، وعندما رفعت من مكانها تركت هلالا باهتا وسط التراب . وعلى كرسي حلة مطوية بعناية ، وتحتها حذاء مخرس ، وجورب ملقى به .

أما الرجل نفسه فقد كان يرقد في السرير

وقفنا طويلا هناك ، لا يسعنا إلا أن ننظر إلى الابتسامة العميقة المعراة من اللحم . كان الجسم ، فيما يلوح ظاهرا للعيان ، قد رقد ذات مرة ، في وضع العناق ، أما الآن فقد خدعه النوم الطويل الذي يخلد بعد الحب ، ويقهر حتى بسمة الحب عن ناجذيه وما بقي منه كان قد تعفن تحت ما بقي من ثوب النوم وما عاد يمكن تخليصه من السرير الذي رقد عليه ، وفوقه ، وفوق المخدة بجانبه استقر ذلك الغلاف المتسق من التراب الصبور المقيم .

ثم لاحظنا أن على المخدة الثانية أثر الفجوة التي يتركها استناد الرأس عليها ، ورفع أحدنا شيئا من عليها ، وانحنينا إلى الأمام ، وفي أنوفنا ذلك التراب الجاف الحريف الرائحة الذي لا يرى ، فرأينا خصلة طويلة من الشعر الرمادي بلون الحديد .

كاميلا خوزيــه ثيــلا

●

عندما ترجمت هاتين القصتين القصيرتين في أواسط الخمسينيات لم يخطر لي ببال عندئذ أن هذا الكاتب (المجهول عندي إلا في ما أحسسته من جمال في قضيته) سوف ينالُ نوبل في ١٩٨٩م . ولــد كاميلا خوزيــه ثيلا في ١١ مايو ١٩١٦ ، في قرية صغيرة اسمها اريا فلابيا ، في جالثيا ، شمالي اسبانيا ، من أب إسباني وأم إنجليزية ، وكانت إحدى جداته إيطالية . درس الطب ، والفنون ، والقانون في مدريد من ١٩٣٣ حتى ١٩٣٦ ومن ١٩٣٩ حتى ١٩٤٢ ، دون أن يحصل على درجة جامعية في أي منها .

قال : «تعلمت في مدارس الجيزويت (اليسوعيين) ثم في مدرس ثانوية يديرها رهبان تابعون لأنظمة دينية ، لكن أحاسيسي تكونت في الشوارع» .

في ١٩٤٢م عندما ظهرت روايته القصيرة «عائلة باسكوال دوارتي» كان كاميلا خوزيه في السادسة والعشرين ، ولقيت هذه الرواية حفاوة بالغة ، كان أسلوبه في العمل يندرج في سياق تقاليد الأدب الإسباني ، واقعيته التي تنحو منحى·العكوف على حياة الشطار والعيارين (هل نذكر هنا «دون كيخوته؟») ولذعات السخرية السامة ، وبصيرته النافذة بدخائل أبطاله .

ولــه روايات وكتب عدة ، منها «خيمـة الاستراحة» و«جولات ومحن لاثاريو دي تورميس الجديدة» و«خلية النحل» ، و«القديس كاميلو ١٩٣٦» و«مهنة الظلام» وغيرها . وكان قد كتب شعرا سيرياليا ظهر بعنوان «إنني أطأ ضوء النهار المتردد» ومن مجموعات قصصه القصيرة «تلك السحب العابرة» وغيرها ، وكَـتَـب في أدب الرحلات وفي المقالة ، له إنتاج غزير متواصل .

يــرى النقاد مع ذلك أن الوقع الأخير لأعمال ثيلا أمر محير ، فهو يجمع بين عناصر شتى متنافرة : الواقعية والباروك ، وفقا للتقاليد الإسبانية العريقة ، وأصدقاء العالم الكافكاوي المعاصر ، بما فيه من عنف وكوابيس .

أفكار صبي

لطيف أن يبقى الواحد في السرير بعد أن يكون النهار قد طلع . شرائح الضوء تومض من خصاص النافذة كالفضة ـ الفضة الباردة ، في برودة سياج الشرفة الحديدي ، أو انبثاقة الماء من الصنبور . ولكن السرير دافىء ، والواحد مغطى كله ملفف ، حتى الرأس أحيانا . وفي الغرفة الآن شيء من النور ، ويمكن أن ترى الأشياء واضحة بكل تفاصيلها ، أحسن من نور النهار كله ، حتى ، لأن عيني اعتادتا هذه العتامة التي لا تتغير كل صباح ، مدة نصف ساعة أو نحوها . الملابس مطوية على ظهر الكرسي ـ وحقيبتي المدرسية ـ بالكتب والمساطر وعلبة السجاير التي أضع فيها الأقلام والريش ـ تتدلى من أحد العصى الناتئة من فوق الكرسي كأنها أكتاف ، ومعطفي منشور على آخر السرير ، ممدودا حتى يغطيني . وأكمام المعطف تتخذ مواقع غريبة ، وتبدو كأنها أذرع شبح ميت فوق السرير . شبح لعل ضوء النهار باغته فقتله بينما كان يطل في داخل أحلامي . ثم هناك كوب الماء الذي على مائدة الليل دائما حتى أجده إذا ما استيقظت في الليل عطشان . كوب طويل يقف على طبق مزخرف بالأزرق ، وفي قاع الكوب قدر قيراط من السكر الذي بهت معظم لونه الأبيض . وإذا قلبت الماء ارتفع السكر كأنما لا وزن له ، أو كأنما اجتذبه مغناطيس . وإذا أدرت رأسي ونظرت إلى الكوب ، في وضع خاص ،

بالضبط ، التمعت حافة الكوب بكل الألوان ، تضيء وتبهت ، كأنه منار . وأنا لا أتعب أبدا من النظر إليه ، على أنه هو هو نفسه كل صباح . لو أن مصورا جاء فرسم لوحة لكوب من الماء حتى منتصفه ، تضيء شرارات حول حافته ، وكل الألوان ، شرارات كأنها الضوء ينثال من القدح . وحقيقي حتى لتكاد تأخذه بيدك ، فإنه لن يجد من يصدقه ، أنا متأكد .

وأنا أترك رأسي ثانية على المخدة وأشد المعطف على رأسي . وأحس البرد في قدمي على الفور ، ولكن ذلك لا يهمني ، فأنا عارف ، أخلص إحدى قدمي من تحت البطانية وأنظر إليها . غريب أن يفكر الواحد في الأقدام . فالأقدام شيء قبيح وأنت إذا نظرت إليها وجدت لها شكلا غريبا . لا يشبهه شيء في العالم . وأنا أنظر إلى الأصبع الكبير ، وأركز انتباهي فيه ، وأحركه . ثم أنظر إلى الأصبع التالي وأركز انتباهي فيه ، ولكنني لا أستطيع أن أحركه . وأفعل وأهتاج لهذا الأمر ، ثم أضحك . الأصابع الأربعة الصغيرة لا تتحرك إلا كلها معا ، كما لو كانت ملتصقة بعضها بالبعض . أما أصابع اليد فكل واحد منها يتحرك لوحده . وإلا كان مستحيلا أن يلعب الواحد على البيانو ، هذا واضح . ولكنك لا تلعب على البيانو بأقدامك ، بل تلعب بها الكرة ، وأنت لا تحتاج في لعب الكرة إلى أن تحرك أصابع قدميك بالمرة . يا ليت أنني كنت في حوش المدرسة ألعب الكرة وأنظر إلى قدمي ثانية ، فلا أجد فيها شيئا يسلي . الله . . بهذه القدم يمكن أن أكسب الشوط في المباراة ، بعد أن يكون الفريق موشكا على الخسارة ، وبعدئذ ينظر لي كل الأولاد في الفصل بامتنان وعرفان للجميل .

ولكن هذه القدم نفسها لا فائدة فيها ، فهم يضبطونني وأنا أتكلم ، ويأمرونني بالوقوف ووجهي إلى الحائط ، تحت الجرس . والحائط مبني

بالجبس ، فأرفسه وأسقط منه قطعا بقدمي ، شيئا فشيئا ولكن حتى ذلك لا يسلي كثيرا .

وأغطي قدمي ثانية ، بسرعة . وأحس كما لو كنت سأبكي .

وأفكـــر . إن حذائي يعامل كما لو كان أزهار البنفسج ، أو الزهور اليابانية ، فهو يؤخذ من غرفتي ، ويوضع تحت لينام . ولا يريد أحد أن تبقى هذه الأشياء في غرف النوم بالليل . وعندما أفكر في أزهار البنفسج أحس أنني موشك على البكاء ثانية . وأبكي بجد بضع دقائق ، حتى يبلغ من إحساسي بالسرور ، لأنني شقي ويائس إلى هذا الحد ، أن أتمنى البقاء في السرير طوال عمري ، ولا أذهب للمدرسة ، ولا أذهب ألعب في أي مكان ، بل أظل أبكي هكذا ، لوحدي .

ويغيظني من نفسي أنني لا أستطيع مواصلة البكاء . فأنا عندما أبكي في الصباح ينتهي الأمر بي دائما للنوم . ولا أعرف كم نمت ، ولكن عندما تأتي أمي لتوقظني ـ وأمي شقراء ولها عينان زرقاوان وهي بلا شك أجمل امرأة في العالم ـ تكون الشمس قد علت ، وتفيض على كل شيء بالنور .

وهي توقظني في حرص ، تمسح جبهتي كما لو كانت تزيح الشعر عن وجهي . وأظل مغمضا عيني ، وأتظاهر أنني لم أصح ، ولكن من الصعب على الواحد ألا يبتسم عندئذ . وبعد قليل ، أقبل يديها : إنني أحب الخاتم الذي تلبسه دائما ، وفيه ماستان لامعتان . ثم أقعد في السرير . ونضحك كلانا . . ياما أسعدني . . ! .

وتساعدني في اللبس . ثم يأتي دور أصعب شيء . . فهي تأخذني من يدي إلى الحمام ، وأنا مهموم مكروب حتى لا أستطيع أن أفكر في شيء على

الإطلاق . وتخلع أمي الخاتم حتى لا تجرحني ، وتضعه على الـرف الزجاجي الذي عليه فرش الأسنان وعدة حلاقة أبي . ثم تجعلني أقف على كرسي . وتفتح الماء . وتأخذ تحك وجهي كأنه لم يغسل من شهر . وهذا فظيع : وأنا أصرخ ، وأرفس الكرسي ، وأبكي وأجن .

لا فائدة فأمي قوية شديدة القوة . وبعد ذلك ، عندما تجففني بمنشفة ، أشعر بالدفء وبإحساس لذيذ ، وتبتسم لي ، وتقول لي إنه عيب أن أصرخ هكذا ونقبل بعضنا بعضا ثانية .

وإذا كان الفطور باردا فهي تسخنه من أجلي ، وإذا كان ساخناً جدا فهي تبرده من أجلي ، بأن تسكبه من فنجان لآخر عدة مرات .

وبعد ذلك تساعدني في لبس المعطف والكاب . ثم تقبّلني مرة أخرى لأنها لن تراني حتى ميعاد الغداء .

الكمان

حــدث ذات مرة منذ سنوات طويلة ، أن كان هناك مسافر آيرلندى ، يُسمَّى دون والتر ، وكان أكولا ، مولعا بالشراب ، كثير التجوال ، وبدينا للغاية .

وكان دون والتر صاحب مزاج رائق ، ويعرف كل الحكمة القديمة . كان دون والتر يعرف عليهم النجوم ، ويفهم لغة الطيور ، ويعزف الكمان ، ويتكلم الإسبانية . وكان دون والتر يستطيع أن يميز بين السجق الآتي من «بورجوس» والسجق الآتي من «بامبلونا» وبين النبيذ من كرمتين شقيقتين ، والقمح من حقلين لا يفصلهما إلا جدول صغير ، وشروق الشمس في يومين متماثلين لا يفصل بينهما إلا فرسخ واحد .

وفي ذات يوم ، ولم يكن إلا يوما آخر من الأيام ، جاء إلى الساحل عند «هنداى» وسأل صاحب مركب :

ـ كم تريد لتأخذني إلى إسبانيا؟ .

وأجاب صاحب المركب :

ـ ٢ بيزيتا ، ياسنيور ! .

ونظر دون والتـر إلى الريف حواليه ، ونظر إلى البحر الأزرق ، وإلى التلال الخضراء في داخل الأرض ، ثم قــال :

ـ طيـــب . سأعطيك أربعة بيزيتات إذا رحت على مهلك ، فلست

متعجلا . ومازال لدي العمر كله .

واستراح صاحب المركب على مجاذيفه وأخذ يتكلم . وقص على دون والتر حكايات عن المهربين ، وعن عمال الأرصفة والبحارة .

ونـــزل دون والتر على ساحل المدينة . وحمل حقيبته على كتفه ، والتقط عصاه وكمانه ودخل المدينة . واكتشف في ذلك اليوم ثلاثة أشياء : أن زيت الزيتون يستعمل في الطبيخ ، وأن أطفال المدينة هم أكثر أطفال العالم مرحا وصخبا وشقاوة ، وأن الشحاذين فيها مؤسسة اجتماعية . كان لدون والتر قلب كالنافورة ، على استعداد لأن يفيض على الناس والأشياء دائما بفيض من المحبة التي لا تنتهي .

وواصل سيره ـ وقد خلف المدينة وراءه ـ فلقي بياعا متجولا ، ثرثارا جدا ، وكله صبر وتسليم ، قال له :

ـ لن تكسب هنا ما يكفي لإيجار سرير في لوكاندة ، أين تذهب؟ . .

ـ إلى سان سيباستيان .

ـ وأنا أيضا ، سنسير معا .

وكان الرجل الذي يحمل الكراكيب يسير بسرعة شيطانية . وشق على دون والتر أن يلاحق خطواته . ففكر أن يجلس على حافة مصرف ينسل في قاعة خيط رفيع من الماء ، أو أن يتمدد وينام تحت شجرة ، ولكن قوة غالبة دفعته إلى أن يلم من قوته ، وأن يقوي قلبه ، ويتبع أول صديق له في إسبانيا وضعته له العناية الإلهية في طريقه ، يتبعه بوداعة وطاعة ، بل بشغف .

واتضحت أنوار سان سيباستيان من بعيد .

وعند وصولهما إلى سان سيباستيان كانت أجراس الساعات في الشوارع تدق منتصف الليل . وذهب دون والتر ورفيقه ينامان في غرفة على سطح خان : سريران مهرشان وإبريق من الصفيح للماء ، وحوض لغسيل الوجه في الصباح .

وفي قاع الحوض كانت تسبح ذبابة تنازع الموت في مقدار بوصتين من الماء القذر . وعلى الأرض تراب . وعلى الجدران قرف . وبروح مستبشرة متفائلة ، وجسم منهوك ، نام دون والتر اثنتى عشرة ساعة متواصلة .

وناداه صديقه الذي كان قد نهض مع صياح الديكة في الفجر ، وعاد من جولته على أسفلت الشوارع ، يصطاد الزبائن ، من بين الخادمات المزهوات بأنفسهن والسيات المفلسات :

ـ انهض يا كُسَلي ! . .

ودار البياع ليلف بصديقه على مقاهي المدينة .

ـ تذكر هذه ، هنا تستطيع أن تعزف .

وأراد البائع أن يجنب صديقه وحشة المشي وحده ، يوما بعد يوم ، في الشوارع ، فعرفه بعازف غجري للقيثار «تيولوكاس» وهو رجل عجوز أحول يشكو ، دون أن يتكلم ، من الحالة .

ـ خــل بالك منه ، إنه صديق لي ، غريب ، لا يعرف البلد ويريد أن يعيش من لعب الكمنجة .

ولـم يكد العجوز يرفع رأسه .

ـ ماذا أستطيع أن أفعل؟ الأحوال صعبة ! .

وكان «تيولوكاس» يترك الكلمات تسقط من فمــه ، ببطء وثقل ، كأنها القطرات الأخيرة من صنبور .

ـ انظر بنفسك ، لم أستطع اليوم حتى أن أشتري كأسا من «الاجواردينت» .

قالها بمرارة كبيرة ، مرارة خليقة بممثل مأساة عريق .

فطلب دون والتر «اجواردينت» ، ثلاثة كؤوس ، وابتسم تيولوكاس ، وفتح باب المفاوضات . شرب دون والتر كأسه ، وأخذ يفكر تفكيرا عميقا . نعم ، إنه يتذكر بضع كلمات من لهجة الغجر . وقــال :

ـ تيولوكاس ، يجب أن نكون أصدقاء . إنني أيضا غجري . والأصول أن تساعدني .

فشرق تيولوكاس :

ـ يــاه ! . . أنت أيضا «رومي» ! . .

لا يمكن أن يخمن أحد هذا ، من وجهك ! وتصافح الاثنان . لا يمكن أن يوجد سوء نية بين الروم ! . .

وانعقدت الصفقة ! .

وفي المساء غــزا الصديقان أرصفة المقاهي . وتولى الغجري العجوز الأحول قيادة الحملة : فقد كان يعرف الأركان الاستراتيجية ، ويبتسم للناس عندما يمر عليهم بالقبعة ، ويأتي باشارات غير ملحوظة لدون والتر . وترك دون والتر نفسه تحت قيادته ، بطاعته .

وفي الليلة ـ أول ليلة يعزف فيها كمانه في إسبانيا ـ قام دون والتر بعمله في كل أركان الشوارع في سان سيباستيان .

وقال له الغجري ، عندما رجعا :

ـ أنت اليوم تأخذ كل ما حصلناه ، وغدا النص بالنص .

كان الفجر يشرق على سيباستيان ووفدت من جهة الرصيف إلى آذان دون والتر همهمة البحر البعيدة .

المترجم

■ قصص وروايات :

العنوان	النشر
١ـحيطان عالية محموعة قصص	القاهرة :الخراط ،١٩٥٩ . ط ٢ (كاملة)ـبيروت : دارالاداب ، ١٩٩٠ .
٢ـساعات الكبرياء :مجموعة قصص	بيروت : دار الاداب ، ١٩٧٢ . ط ٢ـبيروت : دار الاداب ، ١٩٩٠ .
٣ـرامة والتنين :رواية ـطبعة محدودة	القاهرة :الخراط ،١٩٧٩ . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ . ط ٢ـبيروت : دار الادب ،١٩٩٢
٤ـاختناقات العشق والصباح ـقصص	القاهرة : دار المستقبل العربي ،١٩٨٣ ط ٢ـبيروت : دار الاداب ،١٩٩٢ .
٥ الزمن الاخر .روايــة	القاهرة . دار شهدى ، ١٩٨٥ . ط ٢ـبيروت : دار الاداب ،١٩٩٢ .
٦ـمحطة السكة الحديد :رواية	القاهرة :الهيئة العامة للكتاب ،(مختارات فصول) ،١٩٨٥ . ط ٢ـبيروت . دار الاداب ، ١٩٩٠
٧ـترابها زعفران . نصوص اسكندرانية	القاهرة : دار المستقبل العربي ،١٩٨٦ . ط ٢ـبيروت . دار الاداب ، ١٩٩١
٨ـأضلاع الصحراء :روايــة	القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ،١٩٨٧ .
٩ يا بنات اسكندرية :رواية	بيـروت : دار الاداب ، ١٩٩٠ ط ٢ـالاقهرة : دار الياس العصرية ، ١٩٩١ .
١١ـأمواج الليالي : متتالية قصصية	القاهرة : دار شرقيات ، ١٩٩١ ط ٢ـبيروت . دار الاداب ،١٩٩٢ .
١٢ حجارة بوبيللو . رواية	القاهرة : دار شرقيات ،١٩٩٣ . ط ٢ـبيروت . دار الاداب ،١٩٩٣ .
١٣ـاختراقات الهوى والتهلكة : نزوات روائية	بيروت : دار الاداب ،١٩٩٣ .
١٤ـرقرقة الأحلام الملحية رواية	بيروت : دار الاداب .
١٥ـأبية متطايرة :رواية	بيروت : دار الاداب
١٦ـحريق الأخيلة : رواية	بيــروت . دار الاداب .
١٧ـاسكندريتي : كولاج قصصي	الاسكندرية ،دار المستقبل ،١٩٩٤ .

■ دراسات :

العنوان	النشر
١٨ـمختارات من القصة القصيرة في السبعينات . مع دراسة	القاهرة : مطبوعات القاهرة ، ١٩٨٢ .
١٩ـعدلي رزق الله : مائيات ٨٦ : دراسة	القاهرة . عدلي رزق الله ،١٩٨٦
٢٠ ـمائيات صغيرة : دراســة	القاهرة ،١٩٨٩ .
٢١ـأحمد مرسي : دراسة ومختارات شعرية	القاهرة ، ١٩٩٠ .
٢٢ـمن الصمت الى التمرد : دراسات في الأدب العالمي .	القاهرة ، كتابات نقدية ، ١٩٩٤ .
٢٣ـالحساسية الجديدة : مقالات في الظاهرة القصصية .	بيـروت : دار الاداب ، ١٩٩٣ .
٢٤ـالكتابة عبر النوعية . دراســة	القاهرة : دار شرقيات ، ١٩٩٤
٢٥ـما وراء الواقع : مقالات في الظاهرة اللاواقعية	

■ كتب مترجمة :

العنوان	النشر
٢٦ـالخطاب المفقود : مسرحية/ أ .ل . كارجيالي	القاهرة : الدار المصرية للكتاب ،١٩٥٨ (نفد)
٢٧ـالحرب والسلام : ليو تولستوى	القاهرة : الدار المصرية للكتاب ،١٩٥٨ . (نفد) .
٢٨ـالبحرية والفارس : قصص رومانية	القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر ،١٩٥٨ . (نفد) .
٢٩ـشهر العسل المر : قصص ايطالية	القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، (كتب ثقافية) ،١٩٥٩ . (نفد) .
٣٠ـقاراكو : رواية غينية/ اميل سيسيه	القاهرة . الهيئة العامة للكتاب ، (الألف كتاب) ،١٩٦٢ (نفد) .
٣١ـانتيجون : مسرحية/ حان انوى ، ادوار الخراط ، ألفريد فرج	القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، (الألف كتاب) ،١٩٦٣ . (نفد) .
٣٢ـمشروع الحياة : دراسة/ فرانسيس جانسون .	بيروت : دار الاداب ، ١٩٦٧ . (نفد)
٣٤ـالوجه الاخر لأمريكا : دراسة ميكائيل هارنجتون .	بيروت : دار الاداب ، ١٩٦٨ . (نفد) .
٣٥ـتشريح جثة الاستعمار : دراسة جي دي بوشير .	بيروت . دار الاداب ،١٩٦٨ . (نفد)
٣٦ـالشوارع العارية : رواية/ هربرت ماركوز	بيروت : دار الاداب ،١٩٦٨ . (نفد) . ط ٢ـالقاهرة . دار الياس العصرية ، ١٩٩١
٣٧ـنحو التحرر . دراسة/ هربرت ماركوز	بيروت : دار الاداب ، ١٩٧٢ . (نفد) .
٣٨ـحوريات البحر : قصص أمريكية	القاهرة . دار الهلال ، ١٩٧٩ (نفد) .
٣٩ـالاسلام والاستعمار : دراسة/	القاهرة : دار شهدي ، ١٩٨٥ . (نفد)

الفهرس

المجمع الثقافي

CULTURAL FOUNDATION

ص. ب ٢٣٨٠ - ابوظبي - الإمارات العربية المتحدة - هاتف : ٢١٥٣٠٠

P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U. A. E. - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION

